نقيق الضفدع

رواية

صلاح والي



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٨



نقيـق الضـفدع

الاخراج الفنى والغلاف : محمد قطب

غرس الرجل مديته مابين الكتفين ، لف ساقيه على بطنه ، سار به فى الخلاء الوسيع متجها الى المقابر سالكا وسطها الى القرية كان يئن تحت آلام الغرس ، مطأطأ الرأس سار بارادة الرجل٠٠قاده الرجل حتى باب المنزل ووقف أمامه ، طرق الباب عدة طرقات عجولة فتحت زوجته بعد أن علمت من الطارق ــ دخل الرجل ــ أقفل الباب بكل حذر الى البيت دخل الرجل وهو يمسك المدية ويزيد غرسها ما بين الكتفين ٠٠ أقفل الباب تاركا ما يسمح بدخول يده ، سحب يده بسرعة البرق وأقفل الباب ، زعق الاتان وجرى فى طرقات القرية ثم تحول الى سحابة وتبددت فى السماء ٠

كنت مخنوقا بدخان الفرن لا أتابع حكايات جدتى عن (أحمد الجديد) فقد سمعتها وغيرها وجدتى لا تمل أن تحكى ٠ أحسست أن قريتنا هـــى الوحيدة الموبوءة بالعفاريت والجن واللصـــوص والسمسار وبائع الأقمشة الرخيصة وصبيحة المجنونة ، كانت البلاد الأخرى والقرى غير ذلك فلم أذهب اليها ولم أسمع حكايات فيها وكنت أحس أن قريتنا ربما ملعونة فأحس بخيبة الأمل والذل ٠٠

كانت أمى قد أوقدت (الفرن) من عصر ذلك اليوم وما أن هدأت النيران فى جوفه حتى وضعت ابريق الماء الأسود الكبير فى فتحة الفرن وابريقين صغيرين أمام الأبريق الكبير ليصبح الماء دافئا لنا وللجدة ٠٠ كان الدخان ينتشر فى جو الحجرة صانعا طبقة زرقاء تحجب نصف زجاجة المصباح (مصـــباح الكيروسين) المعلق فى منتصف الحائط ٠٠

أحسست بالدوار فتمددت ونمت بعيدا عن جدتى ٠ صاح الديك فلم أجد أحدا بالغرفة ـ مظلمة كانت الغرفة على الحائط ثلاثة خطوط طولية غير متوازنة وستة بقع دائرية من الضوء ٠ أخذت الابريق الأسود ذا الماء الدافىء من فتحة الفرن ، قضيت حاجتى فى الخارج‌ثم غسلت وجهى ٠ كانت الشمس ساطعة فى الخارج كانت أمى وجدتى واخوتى البنات فى الشمس يخرجن بذور القطن من أبراجه البيضاء ، وقفت مدلى اليدين ، قالت أمى (كل) (ودفعت المشنة) ناحيتى ٠

واستدرت على عقبى لم أتكلم ٠ سحبت كتاب التاريخ ٠ على سطح منزلنا وسط القش كنت أبحث عن أسباب فشل الثورة العربية العرابية ٠ نزلت من السطح ضيق الصدر ـ كان البط فى الباحة حول اناء الماء قد حول الأرض الى مستنقع من الوحل والروائح القذرة ، بصقت عليهم وسرت خارج البيت ٠ فأنا لا أحب المدرسة ٠ أغيب يوم حصة اللغة العربية للشيخ (خطاب) الذى يعطينا درس الانشاء ـ أحمد خطاب من أبيك ٠٠

كنت قد تجاوزت الباب الخارجى لمنزلنا ، وكان أبى فى جنوب الشلال فى قرية (أبو هور) كان منفيا لاشتراكه فى جماعة الاخوان المسلمين ٠

عدت الى أمى ، قبلت الخطاب توقعت أن يحمل نقودا أو لعلها البشرى بالنقود ، كان يفيض بالشوق والألم والشوك) أحسست

بالدموع والمرارة تصعد من قدمى حتى محاجر عينى خرجت مسرعا خارج البيت كنت أهوى فى فضاء سحيق وليس به مخلوق غيرى ٠

لكن هناك خلف الغيم وخلف ســـواد الليالى وجوها ملثمة تتآمر على قتلى ٠

شوارع القرية متربة ، أزقتها قذرة ، أكوام السماد مرقشة ببراز الأطفال ، جمعت كل مخلفات العالم وألقيت فى شوارع قريتنا دون قرى العالم ٠ قناة صرف المجارى من مراحيض الجامع تمر من أمام بيتنا طافحة من الجانبين ، كان لابد أن أخوض فيها حتى أمر الى الجهة الأخرى يمتد طرف القناة الآخر ليصـــرف المجارى فى مصرف القرية بمياهه الراكدة ، تنتصب على جسره مواقد الغسيل ، جماعات النسوة كشفن عن سيقان هزيلة ، يغسلن فى مياه المجارى الملابس المتسخة ، حولهن الأطفال المتربون حليقى الشعر ، جلباب واحد قصير على الجسد الناحل ، لا أسفله ولا أعلاه ، تمر عليه الفصول لا يخلع الا ليلة العيد الصغير للاستحمام ، وليلة العيد الكبير لا ســتبدال ما بقى منه بثوب آخر ٠ كانوا على شـــط القناة يصـــنعون العرائس والأحصـــنة والحمير والديكة والجمال من طين القناة ، تعلوهم جماعات من الذباب كالطـــير الأبابيل سوداء ، هباب المواقد أسود ، الطين أسود ٠٠ ملابسهم سوداء ٠٠ الذباب أســـود ، أحس أننى أود التقىء ، مصـــابا بالدوار معدتى تؤلمنى واصلت الســـير كانت بيوت القرية ساكنة كل شىء ساكن لا حراك فيه ، بيوت الطين متلاصـــقة محنية الظهر مغمضة العينين ، فتحات الأبواب ضـــيقة ، الأبواب لا تحمى شيئا كأنما استـحى صانعوها من عمل أبواب ســـميكة ، لا لزوم لها فجعلوها أبوابا ولكن عليها أقفالا كبيرة ٠٠

شجرة الصفصاف منكسرة محنية كظهر القط الأليف ، أحس بالاختناق غيرت طريقى واتجهت الى المقابر ٠٠ جلســـت على أحد

القبور الى البعيد أنظر ٠٠ عود سرو وحيد منتصب لكن بأعلى هامته انحناءة بدأت فى الظهور ٠٠ وكأنه استسلم بعد طول مقاومة ٠

كانت القبور المهجورة قد قذفت بعظامها وجماجمها خارجها ولم يعد (أبو المجد) بعد موته يكسو أولاده من أكفان الميتين كانت القبور مملكتى المريحة أحصيها ، أقارن بين تميزها ، أعدد ألوان المطلى بالجير والطينى ٠ مالت الشمس الى المغيب ، طوابير المواشى العائدة من الحقول تجر فى حبالها الفلاحون يجرون أقدامهم كطوابير الأسرى سرت معهم لم ينظروا الى ، يعودون الى بيوتهم كحمار (التتريب) يحمل السماد فى الذهاب والتراب الجاف فى العودة ، لا يستريح دورا واحدا يعود آخر النهار مكدودا يدخل البيت بلا أدنى صوت الى الحظيرة مباشرة للنوم يذهبون الى المسجد يغسلون تعب وعرق يوم ، يصلون كيفما اتفق يخرجون يحملون على جباههم ترابا من الأرض وأعوادا من الحلفا التى فرشت بها أرضية المسجد ويتمتمون بالأدعية وختام الصلاة كان الظلام يتعقبنى وأنا أعود الى البيت وسط كل هذا السكون الذى احتل كل شىء الدخان يتصاعد من حجرة (الفرن) والكلب الأبيض فوق السطح بجوار الطاقة منتظرا أن ينتهى الدخان وتقفل بالقش حتى ينام فوقها مستدفئا من الحرارة المتصاعدة من الغرفة ، جلست القرفصاء ٠٠ لمت أطراف الرداء حول قدميها قالت (شرفت تعال كل) ٠٠

– ماذا آكل ياجدة ؟

– بسارة ٠٠

– لا ٠٠ مش بأحب البسارة ٠٠

– البسارة ؟ – عجايب !!

– يلعن أبو البسارة ٠٠

ـ أيه ·· ؟ حرام عليك هذه نعمة ربنا ··

ـ لا اللحمة فقط هي النعمة ··

ـ استغفر يابنى النعمة تزول ··

ـ تزول ··

ـ تعالى ·· ابنك كفر ·· لسانه سوف يهلكه ··

خرجت أمى على صراخ جدتى ، عيونها كلها ترقب واستعطاف وانكسرت فيها عزة الشموخ القديم ··

ـ حاضر ·· تعالى يا أحمد ـ سأجهز لك بطاطس

ـ بطاطس ·· وسوف تجهزون ـ لن آكل

الشارع ـ الظلام ـ فم تنين يبتلعنى ـ تلف خطواتى فى مداخل أحشاء الطرق القذرة ، رائحة روث البهائم ، حارة (الواطية) تلك البيوت التى تراصت بجوار بعضـــها كأنها قطط رابضـــة تتحفز للوثوب اخترقت الأزقة الى الشارع الكبير (داير الناحية) الذى يلف القرية من جهة الحقول كانت بيوت قريتى كلها قد أعطت ظهرها كأنها غاضبة منها ، منكفئة على شىء تخفيه ، أرعشنى البرد الذى قابلنى فوق ســـطح الحقول فى ميعاد مرورة الليلى دخلت الزقاق المعاكس ، انتهى بى أمام بيتنا ·

دفعت الباب ··

ـ مين ؟

أقفلته خلفى ولم أتكلم كنت أعرف أنه صوت أمى ·· تلمست طريقى فى ظلام البيت الى حجرة (الفرن) دخلت

ـ تعال الأكل جاهز ·· تعال ياحبيبى ··

ألقيت نفسى فى حضنها وبكيت ، وأحسست أننى مهزوم ··

وظللت أبكى لا لسبب أعرفه ولكننى كنت أبكى ··

ـ ٢ ـ

كانوا يبحثون عن أسلحة

ـ حرام عليك ٠٠٠

ـ لا تغرك ذقنه ٠ ٠انه سياسى ٠٠

ـ يارجل ٠٠

اخترقت الكلمات أذنى وأنا أمر من أمام دوار العمدة فى الظهيرة عائدا من المدرسة ، بعد أن سـهرنا حتى الصباح فقد قامت المباحث باقتحام منزلنا ليلا وافراغ محتوياته فى الشارع ، وشق المراتب ، والبحث فى حجرة التبن والحظيرة وأخذت كتب والدى ٠٠

كانت أمى ملفوفة فى جلبابها الأسود وطرحتها البيضـاء ، وجدتى على الفرن تبكى مغطاه بالبطانية ـ واخوتى السـبعة قد أعطوا وجوههم للحائط بينما وقفت أنا رجل البيت وكبيره مدلى اليدين مذهولا مما يحدث قلت للرجل ذو النجوم ـ عايزين ايه ؟

دفعنى الرجل بعيدا عن طريقه وكأنه لا يرانى ، وواصل الرجال ذو البلاطى والشوارب التفتيش وكسروا الزير وجرة الدقيق فبكت أمى فبكيت وامسكت بجلبابها ٠

قال الرجل ذو الشارب للرجل ذى النجوم :

ـ لا لا يوجد ياسعادة البيك

ـ فتش تانى ياشافعى

ـ حاضر يا أفندم

قال الرجل ذو النجوم لأمى :

ـ من الأفضل أن تدلينا على مكان الاسلحة ، فى المرة القادمة سنأخذك والصغير معنا ٠٠

قلت له من بين دموعى ـ لا يوجد

فدفعنى من أمامه ـ نام نام

ـ يابن الكلب ٠٠

أطلقتها وعدت الى حجرة الفرن أبكى ٠٠

خرجوا ٠٠ وجاءت أمى تبكى ٠٠ وظللنا نبكى حتى الصباح ٠

كنت أعرف أن الرجال أمام دوار العمدة يقصدون أبى سرت منكس الرأس ، حاولت ألا أنظر ناحيتهم ولكنى نظرت كان بودى أن أجرى ولكن كنت أحس أن قدمى لا تقويان على حملى ٠٠ دخلت حارتنا وخضت فى قناة الصرف والمجارى واتسخ حذائى ، فلعنت العالم كله ـ ضاقت الدنيا فى وجهى ، ضباب يكتسح كل شىء ، عند دخولى من باب بيتنا تعثرت قدماى ووقعت على الأرض ، تناثرت الكتب والكراسات ، بكيت ، لم أستطع القيام من مكانى ، جاءت

أمى تجرى من داخل البيت ، أقامتنى سألتنى عن ســـبب بكائى ٠
كانت حروف اللام وحلقات كثيرة فى حلقى تمنعنى عن الكلام ٠

- رشـــــاد

- رشاد مين ؟

- كانوا عند دوار العمدة يتكلمون علينا ٠٠

- رشـــاد بن من ؟

- أخو توفيق بتاع الذرة الصفرة ٠٠

- ماذا يقولون ؟

- عن أبى (بابا)

(ونحن أولاد المدرسين المتعلمين الوحيدين فى القرية نقول بابا وباقى الأولاد يقولون آبا وكنت أحب أن أقول آبا ولكن لا أعرف لماذا نطقتها بابا)

- معلش

أخذتنى أمى الى الداخل ٠٠ لكن كان رشاد مازال يتكلم فى أذنى ٠٠

(١)

قريتى لا تنـــام

اتفقت بيوت الطين فيما بينها أن تتراص فى حلقات مقفلة دائرية يخترقها شارع واحد ، أن تكون أبوابها وشبابيكها فى اتجاه هذا الشارع وأن يدخل هذا الشارع هذه الحلقة وسط باحتها ويخرج الى حلقة أخرى فترصـــد البيوت التى تراصــت بأبوابها وشبابيكها كالقطط المتحفزة أى شيء يمر فى باحتها وتسلمه الى حلقة أخرى ٠ وتعمدت البيوت فى هذا التكرار للباحات والحلقات أن تمر الشوارع الموصلة الى بيوت ترقبها أيضا وأن تكون الشوارع ضيقة ومتعرجة ورفيعة لا تكفى الا لشخص أو شخصين بالكاد ٠٠

وانخفضـــت البيوت من الداخـــل بحيث يصـــبح المار فى الشـــارع فى مستوى نظر القابع قاعدا داخـــل المنزل لســـهولة المراقبة ٠٠

تواصلت الأزقة والحارات وأفرزت شوارعها لتصب فى الشارع الكبير (داير الناحية) الذى يلف البلدة من الخارج ٠

وأوصت البيوت فى صـــمتها المزعج ، وأنينها المكتوم أن تعطى ظهرها للحقول ترقب داخل القـــرية قانعة أن ما تخافه قادم من داخلها ٠٠

لكن لم يفتها أيام كانت قطعـــا من الطين وحفنات من الماء وأكواما من الرمل وأشجارا من الخشب ، أن تقسم أعمال الحراسة بيتها فأوصت بأن ينفر ويشذ فى كل مسافة فى شارع (داير الناحية) بيت يخالف البيوت بحيث يصبح وجهه ناحية المزارع ولا تكاد تلمحه بصعوبة لتميزه واذا لمحته فتراه نشـــاز عن باقى ســـيمفونية الطين والقهـــر وكانت هذه البيوت المتفقة على الاختـــلاف هى (الناطورجى) أو المراقب والحارس للحقـــول المرتقبـــة للافعال فيما يأتى والمديرة ذلك الحوار الســـرى مع القمر والليل والمبتلعة فرحة شـــروق الشـــمس وقدوم الفجر كما أقســـمت البيوت بنار الافـــران الموقدة أن تتراص على مســـافة كافية حول البيت الكبير ترقبه صـــامتة وتنشـــر رســـالتها الســـرية من خلال جدرانها لكل أطراف القـــرية وقت حدوثها ، ويوم أن مات (بن أبى المجد) مريضـــا بالليل وقبل أن يصـــحوا أهله ترحمت عليه البيوت التى فى أطراف القـــرية وأوســـعت له مكانا فى القبـــور كما اتفقت فى حزم أن تطـــرد خـــارجها بيوت المنشـــقين عنها ٠ فلوحظ فى الســـنوات الأخيرة ، أن امتلأت الحقول بعدد غير قليل بالبيوت المبنية بالطوب الأحمـــر واقفة فى المزارع منفـــردة بعيدة عن بعضـــها غير متلاصـــقة كما أعطت البيوت الطينية تكليفا بالمراقبة للبيوت النشـــاز التى فى داير النـــاحية أن تراقب هذه المفردات فى الحقـــول كما اتفقت أيضـــا مع شـــبابها فى الحقول وحرافيشها أن ينفضـــوا عنهم تعب النهار اذ جـــاء الليل الى

منتصـــفه وأن يخرجوا فى شـــوارعها فى دفعات يشـــقون وجه الليل بالنداءات الليلية على الليل والزمن يرســـلون خلال نداءاتهم وتوجعـــاتهم آهاتهم فيرددها الليل ويبعث بها الى القرى المجاورة حتى اذا ما قارب الليل على الانتهاء ودخل فى جزئه الأخـــيرة أوى الفتية الى مضـــاجعهم فتولى الشـــيوخ مهمتهم فقاموا بالسـعال المتصـــل والبصـــق بصـــوت عال والخروج خارج البيوت بحجة التبول أو التبرز ولكن فى الحقيقة كان خروجا متفقا عليه ٠٠

حتى اذ ما أخذ الليل يلم أطرافه مســـتأذنا البيوت المراقبة ســـامحا للفجر أن يدخل متســـللا الى القـــرية ، دخلت نوبة الحراسة التالية للحيوانات والطيور ففى هذه الســـاعة تبدأ الابقار والجواميس فى الخوار تتبعها الحمير بالنهيق ، فيتولى بعدها صياح الديكة معلنا أن فترة المراقبة قد انتهت وأن النهار على وشـــك البزوغ فتطارد الكلاب فى نبـــاحها المســـتمر أشـــباحا تخيلتها كانت ترصـــدها طوال الليل ٠ فتبدأ بوادر الشـــمس فى البعيد قادمة ، يقابلها على الطرق الفلاحون فى طريقهم الى الحقول ، وتبدأ دورة الصـــباح التى ظن البعض أنها كانت بعد هجوع القوم بالليل، ونوم القرية كلها ، لكم تغيرت القرية خلال عشرين عاما ، تمتم لنفسه صامتا ٠

(ب)

فى بعض الأيام صعب على القرية أن ترصد حركة ســـريعة سرية خارجة من بعض البيوت الى البيت الكبير ، صعب عليها رغم تواصل الجدران والعهد بينها أن تفهم ما يدور ، فاتفقت أن تتخلى عن هذا البيت وتطرده من بين صفوفها ، فنزعت البيوت المجاورة ـ فى الظهيرة ـ جدرانها المشتركة ، وأزاحت عروق الخشب ، وسدت

البوص ، وجريد النخل من على حواف جدرها فسقط سقف البيت وانهارت جدرانه الداخلية ٠

هرع أهله الى كل مكان ليأويهم ولأنهم كانوا فى الحقيقة خدما للبيت الكبير فقد ألحقوا بالأسطبل ينامون فيه وسرت اشـــاعة قوية عن عزم صـــاحب البيت المنهار فى اعادة بنائـــه فاعتذر الفلاحون عن المشاركة فى العمل بحجة حرث الأرض وتخطيط ومسح الأرض والخطوط وزراعة القطن وبعد القطن امتد حبل للحجج اللجوج ـ الذى لا ينتهى بأن جمع القطن قد أزف وأن الاستعداد لزراعة البرسيم والفول على الأبواب امتد الحبل وبعد الأمل فى البناء ٠٠

اتفقت القرية فى تلك الفترة دون مهرجان أو حوار معلن على أن تلقى بقاذوراتها فى هذا البيت المنهار ، فامتلأ المكان بالزجاجات المكسورة وريش الفراخ ، والفئران الميتة ، كما أوصـــت بيوت القرية صبيتها الصغار أن يفرغوا محتويات أمعائهم فى هذا المكان ودفعت حقول القرية وبيوتها كميات لابأس بها من الفئران والعرس وأبناء أوى ليسكنوا هذا المكان ٠

نظر صاحب البيت الى بيته المنهار وما آل اليه تأكد مطلقا أنه لن يستطيع ، نظر الى البيوت الصـــامتة والمتماســـكة ، ودار حول نفســـه وتأكد انها عرفت كانت البيوت الطينية تنظر اليه من تحت جفون شـــبابيكها وترقبة صامته ٠٠

فى الثلث الأخير من الليل عوت الكلاب ونبحت باتجاه خارج القـــرية ودفعت أســـطح البيوت وبتون الحقول بقطع من الطوب والطين ودفعت الشوارع بروث الماشية باتجاه خارج القرية ، عادت الـــكلاب وقبعت مجهـــدة أما بيوت المراقبة وفى فمهـــا أجـزاء من جلاليب لرجال ونساء وسرت رسالة سرية بين جدران البيوت

وبعث بالرسالة الى الأرض الى مضاجع الأولاد والبنات والنساء والرجال ففهمها المتيقظ وسرت فى عروق النائم فتمتم واعتدل فى نومه ·

كانت الحجج كثيرة ، فقد توقفت النساء عن القاء القاذورات والزجاجات المهشمة والفراخ الميتة فى البيت المنهار ـ كما توقف الأطفال عن افراغ محتويات أمعائهم ، وأنهم ماعادوا صغارا ليجلسوا مكشوفى العورة هكذا ·· ورغم تجهيز الأرض لزراعة الموسم الشتوى · الا أن البيوت الطيبة تشاورت فيما بينها ـ ووفرت الوقت ـ واقترحت اعادة البناء لتزويج أحد الشباب فى المنزل ـ بعد أن أختفى صاحبه وأسرته ارتفعت السواعد الهزيلةتزيل الأشجار وجذوع النخيل والأتربة وسدد البوص وقطع الزجاجوبقايا الجدر الوسطى ، ولم يجدوا وسط هذه الخرائب فأرا واحدا أو ابن آوى وكأنه ما أشيع عنها كذبا ·

وفى ركن من أركان البيت وجد (زير) لمياه الشرب وجد سليما لم يكسر وعند محاولة نقله للخارج كان ثقيلا كأنما بداخله شخص كشف أحد الرجال الغطاء فوجد بداخله كلب ميت آلقى الزير بالكلب خارج المكان ·

استمر العمل ··

وصل خبر يفيد أن صاحب البيت قد مات فى القرى البعيدة ·

اكتمل البناء · تلاصقت الجدران مرة أخرى · عاد البيت الى رفاقه تواصلت الرسائل مرة أخرى ، تزوج الشاب ·

فى صباح يوم زواجه تلكأ الفلاحون فى الخروج الى الحقول فقد أرسل ساكن البيت الكبير بعض الغرباء الذين يعملون فى

خدمته طالبا الشـــاب للعمل عنده ، وأن تعمل زوجته فى خـــدمة « الست » السيدة زوجته ، رفض الشاب ، انتشـــر الخبر بين أهل القرية ، صـــدرت الهمسات والرسائل السـرية الليلية بأن الغد لا يحمل أنباء طيبة واستعدت فرق العمل الليلى لما يأتى ٠

عمل الفلاحون فى الحقول والأجران ، دخلت الغلال كلها الى مخازن صـــاحب البيت الكبير الا النزر اليسير الذى لم يدخـــل الاجران أصلا أو الذى بقى للفلاحين بعد القســـمة غير العادلة ٠٠ تسأل أحول العينين : لماذا كل أولاد الخدم فى البيت الكبير يشبهون صاحب هذا البيت ؟

خشعت بيوت الطين ، تأكدت من رفض الشباب للعمل مع صاحب البيت الكبير ٠

فى اليوم الثالث استدعى الشاب الى البيت الكبير ٠

قال أحول العينين ربما لا يعود !!

توقفت الأيدى عن العمل لحظة ، نظرت العيون فى عمق العيون عاد الشاب مثخنا بالجراح مجلودا رقد على بطنه وسرت انهار الخل فوق جروحه لتندمل ، سار ســـاكن البيت الكبير ببغلته البيضـــاء رافعا رأســـه الى أعلى باصقا أمام بيت الشـــاب متوعدا اذا لم يأتى للاسطبل فسيجلد البلدة كلها ٠

دق باب البيت الكبير فى الصباح ، لم يكن صـــاحب البيت وساكنه موجودا اســتقبلت زوجته (بربش) الاعمش الاعرج ٠ فقد تقدم للعمل بالاسطبل قال بعض شباب القرية أنهم شاهدوه وهو يســـتحم فى الترعة وأنه قد حوبى أثناء خلقه بشىء غير عادى فيما بين ساقيه ٠٠

رفض صـــاحب البيت أن يعمل (بربش) عنده ، أصـــرت

الزوجة على عمله ، فان لم يكن صالحا للعمل فى الاسطبل ، فهو صالح للعمل فى المطبخ ، وهى ترى انها بحاجة اليه دون غيره .

شب حريق فى أجران التبن ، تعالت أعمدة الدخان كأنها أنفاس أهل القريه تحرج زفيرها اللافح فى وجه صاحب البيت ، قال بعض السذج انه من فعل فاعل ، شدت بيوت الطين على ايدى بعضـــها اندملت جراحات الشاب المجلود لبس الاعرج الملابس الجديدة ، خلع الطاقيه هزل جســـمه ابيض لونه ، صـــارت الشقوق السوداء فى كعبيه اكثر وضوحا وان كانت اقل سوادا شدت بيوت الطين على أيدى بعضها مرة أخرى .

مر على بغلته متعبا يفكر حتى أنه لم يهدد ولم يتكلم فدخل البيت نزل من على بغلته ، وجد الاعرج امامه جالسا فى حديقه المنزل نظر اليه رفسه وبصق عليه وضربه بعصا الخيل جرى الاعرج الى المطبخ ارتفع الشجار سمع كل من المنزل ليس لك الحق فى ايذائه انه يعمل معى انا انى اقوم بتهديبه ، اكل الاعرج دجاجه باكملها وزوج حمام لم يعجب منها صاحب البيت رغم معرفته التامه بقدرته على الانجاب كانت تتهمه فى رجولته .

علا صوتها عليه ، سافرت بعد اشهر الى البندر لتوعك فى بطنها رغم ان صحتها تحسنت فى الايام الاخيره وامتلا جسمها لكن كانت كثيرة القىء تشكو من الدوار .

قال صاحب البيت مريضة بالطحال شدت بيوت الطين على أيدى بعضها ــ طاطا صاحب البيت ، سار على قدميه متفكرا .

أخرجت الرجال فى الظهيرة جثة الأعـــرج غريقا فى حوض الاسطبل دفن فى المقابر اجهشت الاصوات بالبكاء ، عادت الزوجة من البندر شفيت من مرضها ، أمطرت السماء مطرا غزيرا ..

* * *

ارتفع الشـــجار بالليل ٠٠ لم تطلب بعد الأعرج أحدا للعمل فى المطبخ كثرت زياراتها للمدينة ألقت بيوت الطـــين اللـــوم على بعضها ، ظللت جثة الأعرج تلف الشوارع بالليل ، تطرق أبواب البيوت ، تشـــارك فى نوبات الحراســة وفى آخر الليل تدمع وتقف صــــامتة ثم ترحل ٠

اختلفت أمزجة صاحب البيت الكبير ، طالب بنساء القرية أيقمن على خدمته ، أرسلوا له الرجال ، طردهم ، جن الرجـــل واختفى كثيرا من القرية ، يعود آخر الليل متعبا ، ينام حتى الظهيرة ٠

* * *

كان الخدم يدخلون ويخرجون دون اذن ، يوم غير عادى ، صـــحت القرية فى الصـــباح ، اشاعة سرت بأ ن الرجل متوعك ، عند الظهيرة قيل أنه مريض ، فى المســـاء قالوا أرسلوا لاقربائه ، ســـهرت القرية كلها حول بيت الرجل ، فى الليل الأول قيل أنه مات، نزع أحد الخدم نتيجة الحائط ، واحتفظ بورقة ذلك اليوم ، علق أحد الخدم النتيجة كما كانت ، حضرت زوجة الرجل من البندر ، فتح أحد الخدم المذياع دون قصد فسرت اشـــاعة أن شىء ماحدث فى مصـــــر ٠

حضر رجال ذو سترات صــــفراء بنجوم صــفراء ، ورجال ذو ســـترات سوداء ونجوم صــفراء وبدأ كل فريق فى الحصـــر والتحقيق لكن أحدا لم يفهم شيئا ٠٠

قالوا سيوزعون الأرض ، يكسونهم بالحرير ، يشـــترون لهم الابقار والحمير ، يلبسونهم الملابس الصوفية ، لم يفرح الفلاحون ظلوا يسألون من قتل صاحب البيت الكبير ؟

سافرت جثة الرجل الى بلاده لم تفرح بيوت الطين المتلاصقة قالت فى رسالتها السرية « نحن نحس بالقهر ، ماحدث آخر ماكنا نرتب له » « أضاع ما أنضجناه فى السنوات الماضية » ٠

وزعت الأرض على الفلاحين ، تناثرت البيوت ، هدم بعضها أسرار أبيحت ، أفلتت بيوت من الصفوف المتراصـــة بقيت أعداد قليلة من البيوت المتماسكة ٠

تمايلت هامات النخيـــل كثيرا ، طاولتها هوائيات المذياع ، اختفت هوائيات المذياع وأصبح أصغر حجما وصغر شكله ، وقل وزنه وزاد عدده ، وأصبح يكتب فى اللغة الراديو دون أن يكون بين قوسين وسافر بعض الشباب بعيدا للحرب ٠

(د)

الشموخ والعظمة التى تحسها جدران البيت الكبير عن بيوت الطين والتى تستطيع بســـهولة أن ترى أسطح تلك البيوت الطينية ، لم يمنعها من الخوف والرهبة ازاء تكتل هذه الكتل الطينية المتراصة وازاء هذا الهمس والازيز المتواصـــل أثناء الليـــل ، كانت هناك أحاسيس دائمة بأنه لا شىء ينفذ من والى البيت الكبير عبر الأرض الواحدة الى ومن بيوت الفلاحين ٠٠

تفرد البناء بأحجاره الحمراء وازدهى وبالغ فى التيه بطلائه الأبيض والأصفر لكن الاحساس بالعزلة لم يفارقه ٠٠

كان صوت الخيل يجعلها تحس بالعظمة وصوت خوار البهائم يجعلها تحس بالخير والثراء ، وصوت الكلاب المدللة يجعلها تحس بعدم الراحة ترتفع روائح الشواء واللحم والمرق والحلوى من جدران وطاقات المطبخ مطبخ البيت الكبير فتحس الجدران مرة أخـــرى

بالرفاهية ولكن فى أخريات أيامها كانت تحس أنها تهوى روائح المش والجبن القديم ٠٠

الجدار ٠٠ المواجه لعروسة الصلب التى جلد عليها الشاب ــ تشقق عنه الطلاء وســـقط فجأة وكشر الجدار عن أنيابه دفعة واحدة ٠٠

كانت النوافذ التى فى كل اتجاه ترقب الفلاحين ، ترقب البيوت الواطئة فتعلم أنها تنطوى فى خشوع وخوف دائم منها ٠ لكنها عرفت فى آخر أيامها بعد سقوط بيت الرجل الخدام انها لا تنطوى على الخوف فقط ، لكن هناك أشياء أخرى تنطوى عليها هذه البيوت فكرت الجدران كثيرا لكن لم تصل الى يقين بعد ٠

اعترف حوض الاسطبل بأنه حوى جثة الأعرج فى جوفه وشهد شهقته الأخيرة ، مدفوعا من صاحب البيت الكبير بالليل ، شـــهد ضغط القدم على الرأس بعد أن أيقظه الماء البارد فى الحوض من النوم ٠٠

كما اعترفت جدران حجرات النوم أنها أول من شاهد عرى الأعرج وعرقه وانهاكه فوق الفراش أعلى سيدة البيت لكن كانت البداية حيث حكت جدران الحمام ، الأوامر القاسية التى أطلقتها سيدة المنزل على الأعرج بالدخول للحمام ليزيل أوســـاخه حتى لا تتســـرب تلك الرائحة لجدران البيت ، ألقت الملابس الجديدة ، أقفلت عليه الباب بالمفتاح لكن ثقب المفتاح كان قد طبع حدقة عين السيدة وهى تتلصص على الأعرج من دخوله حتى خروجه كما سجل صدر الباب وبلاط الأرضية التى أمام الحمام الحركة غير المتوقفة للقدمين للسيدة والافساحة التى مابين ساقيها والتخلص من الحذاء والقبض بيدها اليمنى لما بين فخذيها عاليا حنينا رائعا يتهادى ثم قويا قابضا عنيفا ولا تفارق عيناها ثقب باب الحمام العرق الغزير

الانهيار والجلوس على الأرض أمام الحمام · وتؤكد الجدر الملاصقة لباب الحمام أن الأعرج لحظة خروجه ورؤيته سيدته قد فزع فأشارت اليه بعدم الكلام وأشارت بحملها الى حجرتها لكن الصالة الرئيسية للمنزل تقسم أنها ما رأت شيئا من هذا ولكن الصالات والممرات الفرعية التى أكدت مشاهدتها لمنظر الحمل وأنها قد فتحت عيونها دهشـــة قد ســمعت أيضا صوت لحم الفخذين وهو يلعق ساعدى الأعرج ·

أقسمت جدران حجرة النوم أن الأعرج حاول الخروج لكن السيدة أفهمته أنها انزلقت وأن قدمها اليمنى قد التوت وأشارت اليه بقفل الأبواب وتدليك مكان الانزلاق · استفسر الأعرج بيده عن مكان الألم وعندما يضع يده على الكعب تأتى الاجابة بالنفى الى أن حددت له الاجابات مكان الألم الحقيقى فهم الأعرج أنه لا علاج له باليد · اعترض لكنه خاف ، وطأطأت الثريات خجـــلا من عريهما ووارت النوافذ خجلها فى الستائر ، تشهد الصالة الكبيرة أن الأعرج كان يسير منهكا باتجاه المطبخ وأن الطباخ قد زجره لكنها تشهد أيضا أن الأعرج كثر تردده على تلك الحجرة وغيرها ·

تؤكد السيدة كبيرة الوصيفات أن سيدتها لم تكن تأكل هكذا فى الليل أو النهار ــ الا أنها قد فتحت شهيتها هذه الأيام ومن العجب أنها تأكل فى حجرتها ــ وأن كميات الحمام والبط والدجاج التى أكلتها من يوم وصول الأعرج الى يوم موته أكبر من أى كمية دخلت البيت من يوم وصولها الى يوم حضور الأعرج · وأن سيدتها تتفاءل بالأعرج وتقول أنه يفتح شهيتها وأنه رجل بركة ــ ولم يشاهد أحد الأعرج وهو يأكل الا مرة واحدة يوم وصوله أو بعده بيوم ــ الى أن خرج محمولا على أكتاف أهل القرية ··

ولكن الحديقة ونجيلها وحشائشها كذبت هذه الأخبار وادعت أنها صاحبة السبق والمرة الأولى ، كانت الســـيدة فى الحديقة على

لكرسيها الوثير عندما حضر اليها الأعرج ينط بساقه التى تقصر عن الأخرى فيتأرجح مابين فخذيه ، كانت ملابسه الرثة القصيرة الصفراء اللون تدارى ركبتيه أمرته بالجلوس بعيدا عنها وأمامها مباشرة ، جلس الاعرج على بعد متر منها ، جلسة القرفصاء كأسرى الحروب مظهرا دلائل الخضوع ولما كان ثوبه القصير لا يداريه تماما، انزاح الثوب قليلا أثناء الجلوس فظهر أن هناك شيء غير عادى برز بشكل كمثرى مدفوع الحافة الى الأمام أفسح له الأعرج بين ساقيه أثناء الجلوس ٠ أحست الحشائش ثقل هذا الكم عليها وحرارته ونبضه ، وقالت الحشائش أن عيون صاحبة البيت لم تنزل عن ذلك الشيء ، وظلت معلقة به تتفحصه جيدا بينما أسئلتها تتأكد أن الأعرج حميد السيرة خاصة فيما يتصل بالنساء وأنه غير متزوج وأن له من القوة ما أن حمل جوالين من القمح لحملهما ٠٠

قالت المشايات حتى باب البيت الكبير ، أن الأعرج سار خلف السـيدة الى الحمام ٠ لهذا كان للحديقة سـبق الرصـد لتلك الأحداث ٠

لكن مهما اختلفت البدايات والأحداث وتناقضت فان حجرات النوم والحمام والأسوار الخارجية والحديقة ليلا ـ والاسـطبل وحجرات التبن لها حكايات كثيرة حول هذه الموضوعات لكن جدران البيت الكبير يبدو أنها من طول ترقبها للأحداث انها شاخت فقد حدث بعد مغادرة السيدة للمنزل الى المدينة اثر مرضها الذى أدى الى انتفاخ البطن وأعقبه موت الأعرج أن تساقطت أجزاء كثيرة من الطلاء ٠ وحين تعددت زياراتها للمدينة بعد مقتل الأعرج ٠فقد تساقط قيشانى الحمام وبياض سقف حجرة النوم واهتزت بلاطات كثيرة فى البيت وقيل أنه فى غضـون موت صـاحب البيت تردد همس قوى له رائحة النوشـادر أن جدران المنزل قررت ترك أماكنها بالهجرة والعودة الى الأرض ٠٠

قال عرق من الرمل فى باطن الأرض (يصـــل مابين البيت الكبير وبيوت الطين) فى احدى الليالى (قبل موت صاحب البيت ـ قبل موت الأعرج) صـــدرت احدى الانات والرسائل الســرية مابين البيت الكبير واحدى بيوت الطين ـ تطلب منها الود والأمان وانها ستوصلها بأحداث هامة وكانت الأخبار تحذيرات من عرق الرمل الى بيوت الطين من مصـــير الأعرج ٠ احســت البيوت الطينية بصـــدق الرسائل وخاصـــة أن الأعرج لبس الملابس الغالية وهزل جســـمه وخـــلع الطاقية لكن بيوت الطين كانت تريد امرا مؤكدا ٠ تريد شيئا يسير على قدمين أمام صاحبة البيت كما يسير أولاد الخدم ـ الذين يشبهونه اتصـــلت الرســـائل وتســاءلت بيوت الطين بحذر ان كانت البيوت الحجرية من الطين أيضا ؟ أجابت البيوت الحجرية انها فى سالف العصـــر قد خلقت من الطين أيضا

لكن النيران فى افران الحرق قد بنت جذورها عن الطين وأصـــابتها بتصلب فى القلب وحفرت على وجهها علامات الوشـــم لصـــاحبها وانها قد اهتزت ذاكرتها ولم تعى ذلك الا الآن وأنه قد حان الوقت للعودة ولمشاركتها فى التراص والترابط بينها ٠ حذر أحول العينين من أن عرق الرمل هذا ليس من الطين وربما دس وسط الطين لهذا الغرض ٠ دارت مباحثات تسأل عن أصل عرق الرمل هذا ٠ فأفادت انه موجود من زمن بعيد قبل بناء البيت الكبير ، تنفست بيوت الطين الصـــعداء لكن أحول العينين عاد بشـــكوكه يسأل ان كان عرق الرمل نظـــرا لتفرده بحس بالانتماء الى البيت الـكبير ٠ انقطعت الرسائل فجأة اذ علم عرق الرمل ، انكمش على نفســـه بلله ماء العرق والحمى والدموع حتى أن أحد الفلاحين أثناء حفره لدفن كلب ميت وجد عرق الرمل مبللا بالماء ٠

وعندما علمت بيوت الطين بالخبر وراجعت نفســـها كان صاحب البيت قد مات تأملت بيوت الطين فيما حدث وانبرت تسأل

عرق الرمل الذى افاد انه حمل فى جعبته رسائل لهم فى الأيام الماضية لكن ماحدث جعله لا ينقل الرسائل اليهم دفعت بيوت الطين برجالها ونسائها واطفالها جهة البيت الكبير وقالوا انهم جاءوا لاستطلاع الخبر والمشـــاركة فى واجبات العزاء والدفن لكن كان هناك رجال بســـترات صـــفراء ونجوم صفراء ورجال بسترات سوداء ونجوم صفراء وأوراق تكتب واشـــياء تعد وأماكن تقفل وشـــمع احمر على الأبواب كانت احجار البيت الكبير فى كثير من واجهاته قد تخلت عن بعضها نظرا لشكوكها فيمن اتصل بالبيوت الطينية ٠

قالت سلالم الرخام انها حذرت من ذلك حينما دب الخلاف بين احجار الواجهات وقالت فى كثير من الفخر انها تختلف كثيرا عن البيوت الطينية وأنها للسادة بينما الخدم والعمال للبيوت الطينية لكن كان كلامها فى زمن قد فات والفرقة قد دبت بين الأحجار وبدأت تتباعد وتظهر بينها شقوق كبيرة ، قال عنها الرجال ذو الســترات ، أن البيت يتصدع وقال أهل القرية حزن المكان على من فيه ٠٠

(١)

ظلام الليل معطف الرجل العارى - دوائر من السيسل حول يده ممسكا بها غليظة تقوده فى الظلام مع العينين البراقتين - راس الحقل مقصده كوخ الحراسة لا غير - علامته مع المنتظرين اخماد النيران ..

كانت الفجاءة للرجل فقط بملابسه الثقيلة ، كممه العارى من خلفه أوثقه بالحبال ، ربط عينيه بمنديله القديم ، كانت المرأة زوجة الرجل قد تعرت تماما (تعرت تماما) - أطفأ النيران المشتعلة انتهى من مضاجعة المرأة التى تعرفه وتعرف مذاقه ، سـمع صـفيرا حادا من آخر الحقل جرى عصـاه فى يده ، لبس ملابسـه فى المصـلى بعد الاستحمام فى ترعة النصـرانية وكان قد عبر الى الجهة الأخرى ، سـمع صراخ المرأة وعويلها فى الحقل سأل الرجال الخارجين من القرية جريا ، ماهذا قالوا .. لا نعرف استغاثة من حقل ابو السعود ، جرى معهم وصل الى هناك كان النهار على وشك

أن يهزم الليل ــ فك الرجال الذين سبقوه قيد الرجل سألهم ماذا حدث ؟ قالت المرأة هاجمنا رجال أشداء ، وأوثقوا زوجى وضربونى ضربا مبرحا وفروا ، سألها ٠٠ لماذا ؟ قالت أنها اكتشفت سرقة الخيار من الحقل ٠٠

ــ ثم ماذا ياعم حفنى ؟

تمهل الرجل قليلا وقال ٠٠ لا شىء مرض أبو السعود ورقد فى البيت وظلت زوجته تحرس الخيار بمفردها ٠٠

ــ ألم يسرق ياعم حفنى ؟

ضحك الرجل ــ لم يسرق ولم يخلع أحمد الجديد ملابسه ثانية ٠

❋ ❋ ❋

نزل أحمد الجديد من على النخلة ــ كرم الجريد ــ قطع سباطات البلح ٠

قال لأمى ٠٠ كل عام وأنتم بخير

قالت : وأنت انتظر لتأخذ حقك ٠٠

انتظر أحمد الجديد وهو يلم مقلاعه وشرشرته والبلطة ٠

مر رجل من البلده ــ ألقى السلام ــ مبروك ياجديد كده أحسن (كان أحمد الجديد قد تزوج امرأة أبو السعود بعد موته)

لم يرد أحمد الجديد وكأن ما قيل لا يعنيه ــ أخذ نصيبه من البلح والعراجين القديمة والجريد وسار ٠٠

انطلقت اشاعة قوية أن أحمد الجديد مريض ، فى الصباح كان حقل الرجل الذى مر بنا قد التهمته النيران عن آخرها ٠

ــ دق ضابط المباحث بيت أحمد الجديد ــ فتحت زوجته وهى تبكى ورأى الضابط أحمد مريضا وبعض أهل القرية حوله ٠

(ب)

اختلفت الدنيا معه ولم يختلف معها ـ أخذت منه ســـاقيه وســـاعديه وتركت له بدلا منها عهدة قديمة لا تعمل ، لم يعرها انتبهاها وتزوج وأنجب ، حفظ القرآن ، تفتحت له أبواب البيـوت وحجراتها رتل فيها القرآن ، احتل قاعة رجل غنى فى ليالى رمضان ، تدفقت الغلال والأقمشة والفراخ على منزله ، بنى حجرة كبيرة جمع فيها صبية القرية ليعلمهم القرآن ، زاد التدفق بالخير على بيته ، حدد معلوما شهريا عن كل طفل ، اشترى حمارة لركوبها زاد سلطانه عندما تدخل فى حســـم ليلة الزفاف لكل شـــاب من أهل القرية دفعوا له قبل الليلة الموعودة ، صاحب الجن وفتح الكتاب ، ذاع سيطه فى القرى المجاورة ، وفود من النساء والرجال ذوى الحاجات فى مسيرة الذهاب والعودة وهو المقصود دائما ، نطلق عليه لقب ســـــيدنا ٠٠

حوائط الصلب السميكة بين الرجلين ٠ لا أحمد الجديد يلقى بالسلام لسيدنا ولا سيدنا يحب سماع سيرته ٠

كنا نتعجب من هذا الشيطان أحمد الجديد كيف يتمرد على ســـيدنا وهو الذى بيده العقد والحل ويرتجى منه الأمر العسير ، هو الذى له الحق فيما يشاء من النقود والاغنام والحبوب والتمر ، ويرى ويلمس من أجساد النساء ما يشاء ، يمســـح بطن العاقر ويمررها فوق الاناء ذو الماء الفوار فتلد يضع بنفسه صوفة الحمل فيها فتحمل قال العم حفنى :

نحن لا نعرف السبب ، لكن الذى حدث ، كان يوم جمعه ، سيدنا راكبا حمارته متجها الى المسجد ، أتاه أحمد من الخلف قائلا له دون أن ينظر اليه ٠ وكان فى محاذاته :

ابتعد عنى ياراجل ·· تركت لك البلدة تلعب بها كما تشاء فابتعد واتركها والا ···· !

– سأجعل عفاريت الجن والأنس وعفاريت الأرض تلبسك ··

لن أدعك تأخذها ولو على حياتى

– ماذا ســتعمل بها ياكومة العظم – هى تريد رجــلا هل سمعتنى ·· ؟

هذا آخر ماعندى

– أنا أرجل منك ومن أبيك

طار فى الهواء كتلة غير مترابطة ، هوى على الأرض تصحبه طقطقة عظامه ووضع أحمد الجديد قدمه على صدره ونظر اليه ولم يتكلم ثم ضرب الحمارة بقدمه فى مؤخرتها فرفعها عاليا · وانطلقت تعدو فى القرية ··

يمر الرجال الى القرية ويشاهدوا ماحدث فلا أحد يستطيع التدخل اما خوفا من الجديد أو تشفيا فى سيدنا ··

نفض أحمد يديه وسار الى المسجد ··

مرض سيدنا وازدادت حوائط الصلب بين الرجلين ولم يقل أحد منهما شيئا للآخر ·

* * *

(هـ)

لا يدخن – لا يشرب الشاى – لا ينقطع عن المسجد – لا صديق وحيدا اتخذ بيتا منفردا فى أول القرية على أطرافها ·

لا يعرف أحد من أين أتى – أو كم عمره – لا تمر عليه السنون يقولون أنهم ذات صباح وجدوه بينهم – لا يعرف أحد أسمه بالكامل

.. لا يتحدث مع أحد اذا سار ينظر الى الأرض أو الى البعيد لا يزور أحدا واذا زاره أحد فهو الاكرم ، لا يرد سائلا – أمام بيته يجلس القرفصاء وحيدا ، صامتا ، يتنهد بين الحين والحين لا يستطيع أحد أن يسأله عن سره ..

اذا ضاع جمل أعاده ، اذ وقعت بقرة فى الساقية أخرجها اذا دخل شقى الى القرية أمسكه ، اذا سرق شىء من القرية (وهذا لم يحدث من يوم أن سكن القرية) أعاده .. اذا مات أحد رجال القرية – انشقت الأرض عنه – حفر القبر – أدخل الميت ، ردم القبر – أخذ عزاء المعزين وقف فى وسط المأتم يؤدى واجب العزاء كأنه أحد أصحاب الميت ، فى الأفراح موجود ، بعد أن يتم كل شىء يختفى صامتا – يظهر لا يدعوه أحد ويختفى لا يودعه أحد .

لم يحدث أن تناول طعاما فى بيت أحد أو شرب شايا أو حتى ماء فى بيت أحد ..

قال لى ضاحكا : أنتم أعز ما أملك فى هذه الدنيا ..

– كيف يا أحمد ياجديد ؟

لم يرد وأطرق الى الأرض وابتسم – وشرب بقية فنجان القهوة وقام .

(د)

لم يكن ماحدث يستدعى كل هذا !!

جاءوا بسيارات زرقاء متوسطة الحجم وسيارات كبيرة خضراء ، السيارات الخضراء بها جنود بسترات سوداء وعصى جلدية سوداء ودروع زجاجية لا تكسر ، كثيرون أكثر من عدد البلدة ، نزل أول فوج منهم أمام الجبانة عصر اليوم الثانى

عربة زرقاء بها ضابط بملابس زرقاء ونجمة على كل كتف وضابط بملابس زرقاء ونجمتين على كل كتف ، والفوج الثانى فى نفس الوقت عند صهاريج المياه فى شرق القرية ، والفوج الثالث فى نفس الوقت عند حقول (الزواهره) شمال القرية ، والفوج الرابع غرب القرية بين شرشيمة وبين السكاكره (قريتنا) ٠ وتوجهت الى دوار العمدة عربة بثلاثة ضباط يحمل احدهم على كل كتف نسرا ونجمة والآخر نسرا فقط والثالث بملابس مدنية والسائق لا شىء على أكتافه ٠

لم يكن ما حدث يستدعى كل ذلك !!

أخذوا قبل هذا شباب العائلتين ، الى المركز شحنوهم ، وقيل أنهم يسبحون فى برك من دمهم ٠٠

رغم أن ماحدث لم يكن يستدعى كل هذا !!

قسموا الشوارع على الأفواج الأربعة ، لم يصل الناس صلاة العشاء ، أقفلت دكاكين القصب ، والسريع (عصير القصب المتخمر) كذلك البقالة والحلاقة ٠

قال عم حفنى : أنهم مثل الكترابنت ، ماذا حدث ، انه بسيط ولم يستدع كل هذا !!

عد الأولاد والبنات فى خوف ودهشة جريد النخل فى تعريشة البيوت وهم مستلقون على ظهورهم مفتحى العيون ٠

دخلت النساء والرجال الى الحظائر لقضاء حاجاتهم ، قالت النساء فى اليوم الثانى هذه بلد ليس لها كبير ولا عمدة ٠٠

ماذا حدث ، أنه يحدث كل يوم ؟!

تنهد الرجال وأصبحوا مبكرين الى الحقول بالعيون الخفيضة الذليلة يحاذرون فى العودة أن تكون قبل المغيب ٠٠

آذانهم تتسمع الخطو الثقيل فى الشـــوارع ، قلوبهم ترتجف لكنها عقدت العزم بينها على كراهية العمدة ٠٠ نداء الحنـــاجر الهامس على سيدنا وبركاته وجنة فلم يحدث شيء ٠٠

جلد السيد الأعمش عند خروجه ليلا لقضاء حاجته ، وبات سعيد أبو سليم فى الحقل لتأخره فى العودة قبل المغيب وضـــاعت أوزه ، وجديان ، وأربعة فراخ ، وحماره لأن أحدا لم يبحث عنهم وحاصرهم الغروب خارج المنازل ٠

كانت الاقدام الثقيلة ترسم فى دروب القرية حالة من الرعب ، وهى تدب لليوم الرابع ٠

لم يستطع أحد الفلاحين فتح الموضوع من أحد أطرافه مع الآخرين ٠

ماذا يحدث لو كانت الماسورة والمعدية من أمام بيت السيد

أو أمام بيت عبد الحميد ، قامت الدنيا ولم تقعد ٠

تدخل أحد الخفراء فألقاه المتقاتلان فى الترعة ، جرحت كرامة الخفراء ، فجرحت كرامة العمدة ، استدعى البوليس ، أرسلوا له ضابطا صغيرا ومخبرين فعاموا فى الترعة ولعبت العيال بعد شجار قصير بنجوم الضابط ، وضغط (ابن العقر) على نفير السيارة حتى جعلها تطلق بوقها بلا ضغط ٠

قامت الدنيا ولم تقعد رغم أن ما حدث لم يكن يستدعى كل هذا !!

قامت الدنيا وجاءوا بجنود كثيرة فضـــرب الأهالى الجنود وصنعت (ست الناس) بنيات حمام من خوذات الجنود ، وتمنى

سيدنا أن يحصل على عصا جلدية ٠٠ ووجد أن عربة الجنود أصبحت عجلاتها الى أعلى فرمت عليها (سعاد البسه) لمبة جاز مشتعلة فأرتفعت النيران عاليا ، لما حدث هذا كان ماحدث يستدعى أكثر من هذا ٠ لهذا جاءوا بالأفواج الأربعة وأرغموا القرية على النوم من مغيب الشمس حتى شروقها ٠

نادت القلوب الواجفة فى اليوم السابع أحمد الجديد ، عاد متأخرا بعد المغيب ، ناداه الجنود ، اعتدل فى مشيته وسار فى طريقه اقترب منه جنديان ، ثلاثة نادوا عليه ، أمروه بالتوقف ، استمر فى سيره رفع أحد الجنود عصاه وهوى بها فوق أحمد الجديد لكن الرجل اســـتدار ســـريعا وتلقف العصى وانتزعها من الجندى بشدة ألقته أرضا ٠

وصـــل الضــــابط ذو النجمتين وهوى بكفه على وجه أحمد الجديد ٠٠ نظر اليه طويلا صـــامتا صـــمتا مميتا جعلت الضابط ينزل عينيه الى الأرض ثم استدار واضعا يده على مكان الصفعة وعاد الى منزله ٠

انتقل الخبر فى أنحاء القرية ، مرض أحمد الجديد ، لم يخرج من بيته الحراسات تتبدل والجنود والضابط تذهب ويأتى غيرها ثم تحفظ ذاكرة قريتنا اسما لأى غريب الا فاروق سعيد ذلك الضابط الذى ضرب أحمد الجديد ، سألوا عنه ، نهرهم العمدة ، سأل العمدة الضابط الكبير قال انه مات من يومين ٠٠

فى الصباح سار أحمد الجديد فى دروب القرية ، العيون معلقة عليه ، وقف أمام دوار العمدة ، وضع يده مكان الصفعة نظر طويلا اليه ، قال العمدة ، أهلا ياجديد تفضل ، حمدا لله على سلامتك ، بصق أحمد الجديد وسار فى طريقه ، لف القرية والحقول ٠ عاد الى

بيته عصرا ، فى المغيب قيل أنه مات تدفقت الرجال والنساء فى الصباح الى بيته ، أثناء اعداده للدفن ، وجدوا فى جيبه تذكرة قطار من القاهرة الى ههيا **والتى تبعد حوالى خمسة كيلو مترات عن قريتنا** وسبعة جنيهات وأربعون قرشا ٠٠

ثم ماذا ياعم حفنى :

لا شىء ٠٠ عادوا من حيث أتوا

ـ وأحمد الجديد

ـ له حكايات كثيرة سأقصها عليك ٠

(١)

لم تكن عربات النقل التى سارت فى اتجاه خارج القرية - محملة بكل الأثاث هى العربات الأولى التى تخرج فى ذلك اليوم ، لكن كانت قد سبقتها عربات أخرى محملة بالخيـــل والحمير والابقار والجاموس والدواجن والملابس ، أعلنت صاحبة البيت عن حاجتها لبيع الأرض والبيت ، بيوت الطين لا تملك النقود (النقود لا تأتى الا من بيض الدجاج أو بيع الدواجن أو بعض مما تبقى من المحاصيل القليلة ، النقود لشراء لوازم الزواج والجلباب السنوى ، لكن بيوت الطين قد اتفقت مع الحقول انها ستجعل القليل من المحاصيل الباقية لها من صاحب البيت يكفيها حتى دورة الحقل الثانية ، كما اتفقت مع البط والدجاج والأوز أن ترقد فوق البيض وأن ينجح كل الفقس ، لا يموت فرخ ، وتبدأ الدورة الثانية للرقاد مباشـــرة وأن فراخ ودواجن وأرانب الشيخ كانت تلد وتبيض مرتين فى الدورة الواحدة ، كما اتفقت مع الترع والمصارف أن تدفع لها بأسماكها التى تكفيها ،

ورغم أن القراميط قد وافقت على ذلك الا انها أضمرت الهرب فطاردها الفلاحون أثناء الجفاف فى الطنابيش والسواقى ومواسير المشايات وأكلوا لحمها ، لهذا كانت النقود موسمية) ·

ولهذا وافقت السيدة على ايجار الأرض وقفل البيت أيضا ·

رجل غريب عن القرية ، جاء يلبس الجلباب الرصاصى والبالطو الأصفر والطاقية البنية وفى يده عصا خيزران رفيعة سافرت السيدة بعد أن أقفلت البيت وتركت حجرة كانت ملحقة بالأسطبل لهذا الغريب الذى أصبح ناظرا لايجار الأرض · ويشهد الفلاحون انها لم تنزل القرية الا مرتين الأولى عندما حدث خلاف بين الناظر والفلاحين وعندما عاد بعض الشباب الجنود من البلاد البعيدة بنقودهم الكثيرة واشتروا أفدنة قليلة من الأرض ، وبيع باقى الأفدنة للناظر الذى لبس العباءة والجلاليب الصوفية واصبحت عمته (عمامته) أكبر عمامة وفتح حجرات فى البيت الكبير واحضر النساء واطفال لكن لم يعرفهم أحد ·

تابعت حجرات البيت الكبير وردهاته استعادتها لصور الماضى احتل الأعرج والشاب المجلود معظم هذه الرؤى · لكن الخلاف أصبح أكثر عمقا بين الأحجار وبعضها من جهة وبين الأحجار والطلاء من جهة أخرى ، فاتحا بذلك مجالا لمزيد من الشقوق لتسرى فيه كما تحب ونمت الحشائش البرية فى الحديقة ، وزادت نموات النجيل البلدى عن النجيل الفرنساوى حتى دفنته أسفله واستطالت الحشائش ، واستعرضت حتى انها أقفلت نهائيا أحواض الزهور ، الا أن بعض الزهور البرية كانت قد نبتت بشكل حاد حاملة معها أشواكها ومستدة لشىء ما ، زادت حركة تآخر البيوت ، الا أن الحزمة القليلة من بيوت الطين المتلاصقة ظلت متماسكة ترقب فى فزع ما يدور ، وكانت ترسل بين الحين والحين اشارتها من خلال الجدران والأرض

وأشجار السقف الى البيوت المجاورة والبعيدة فتسمع اخبارا جديدة، أولا تصل الرسائل · كانت الاخبار دائما عن بعض البيوت التى أعلنت عصيانها وأخرها هذا البيت الذى هدم وبنى واعتلى صاحبه دورا آخر وطلى بالجير واللون وسافر صاحبه الى بلاد النبى وعاد يلبس الملابس البيضاء والطاقية البيضاء الشبيكة ويمسك بالمسبحة فى يده ، ويقرض الناس الربا من بعد صلاة العصر حتى صـــلاة العشاء أمام المسجد ·

– اهتزت الحزمة الباقية من المنازل الطينية لدى وصولها خبر موت أحد أبنائها الجنود فى البلاد البعيدة ، وتساءلت عن هذه البلاد ؟ كانت الآمال معقودة على نقودهم لاستكمال بناء صف آخر من بيوت الطين لهؤلاء الشـــباب العائدين بآمال الزواج ليزداد تماسك البيوت الطينية كما كان الحلم طموحا لبيوت الطين أن تشترى بالنقود أرضـــا بجوار أراضيها توحدها ، تزرعها معا وتقســم محاصيلها عليهم ·

وصل رجل بملابس مدنية فى سيارة سوداء امامها عربة المركز بالسيارة السوداء رجال بملابس مدنية (وملابس عســكرية) ، سلموا أهل الجندى الميت (الشهيد) مظروفا أصفرا مقفلا ولكن لم يعدوا باحضار الجثة ·

تدارست البيوت وقررت أن ترسل رســائلها الى ارض تلك البلاد البعيدة تسألها عن جثث أبنائها ، لكن برزت بشكل واضح كحد السكين ان كانت البلاد البعيدة معهم على نفس الأرض ، سؤال بارز كعظام (قتب) أبو فاسيخة (أبو فاسيخة) ذلك الذى صرخ أن بيننا وبين تلك البلاد بحر وأنها ليست من أراضينا تحدد نصل السكين بشفرتيه الحادتين القاطعتين ينغرس فى الصدور ولماذا ذهبنا الى هناك ؟

عدل أحول العينين طاقيته فوق رأسه قال : الرئاسة ـ الرئاسة ٠٠٠٠ قالت هى بلاد صديقة جاءتها ساعة ضيق وذهبنا و ٠٠٠٠ وكفى اقول الرئاسة ٠٠٠٠ هذا كلام ـ الراديو ـ

خمن كل منهم وتخيل شكل الرياسة بأنياب واظافر وفم مثل صهريج المياه وصدر كبير هو البيت الكبير وذراع قوية هى كالنخيل، تعبوا من النخيل ولكنهم وافقوا فى اذهانهم أنها ربما الرجال ذو السترات ولكنهم تسائلوا ذو السترات الصفراء أم ذو الســـترات الزرقاء ، تعبوا ، ولكن جاءهم الفرج ، وكاد أحدهم يوشك أن يسأل قال أحول العينين ، مساء الخير يارئاسة ـ الرئاسة ٠٠

قالها فى تهديد أرعبهم وأوقف تخيلهم ٠

لكن واحدا منهم تذكر أن كلمة الرياسة هذه سمعها مقرونة بدوران الجوزة ودخان المعســـل و ٠٠ وكلما بدأت دورتها أطلق حاملها ٠٠

ـ مساء العسل يارئاسة ٠٠

وأنهم يشربونها بلا مساء وبلا رياسة ، ولكن فى حجرة الرجل الغريب كان المعسل بروائح طيبة ومقرونا بالمسا والرياسة لهذا جذب الى حجرته بعض من أصحاب البيوت الجديدة المفردة ٠

(ب)

كان الولد الذى اقسمت بيوت الطين فيما بينها أن ترسله الى المدينة ليتعلم ويصبح كبيرا بين السادة ، والذى كان كثيرا ما جلس تحت أشجار التوت والجميز والسنط واستحم فى الترع وصلى فى مصلياتها المنتشرة كثيرا على جانبى الترعة ، ذلك الولد الذى عمل بحقولها ، نجا من الموت فى عام الكوليرا حيث ولد بعد خمس بنات

ونجا من الموت فحمدا والده ربه كثيرا وسماه (احمدا ، واصبح فتا يركب الحماره عليها الزاد ويسكن المدينة ويتعلم فى مدارسها وفى الصيف يشارك الفلاحين العمل فى الحقول ، أو يقرأ فى أوقات فراغه فى مصلياتها ، كان قد فهم الرسائل السرية ، له منها رسائل خاصة ، واصبح له مكان خاص ٠

فى أثناء وجوده بالمدينة ، حلت على القرية فرقة من ذوى السترات الصفراء والبيضاء بنجوم صفراء واشرطة كراس (الشعبة) تشبه قرون الماعز بيضاء وسوداء ، فتحوا حجرات من البيت الكبير علقوا يافطة (نقطة شرطة) تركوا بها عساكر وشاويش ومكاتب وكراسى وسلاح ومخزن لا نعرف مافيه ، وعلقوا صورة ذلك الرجل الأسمر بملابسه العسكرية ـ ثم صورة له بملابس مدنية يدير فيها رأسه جهة اليسار قليلا ٠

بدأوا فى ترميم البيت ، وكتم التصدع ، وسميت أطفال صغار باسم ذلك الرجل صاحب الصورة ، اسمه كثيرا يأتى فى الأغنيات وفى الكلام العادى فى المذياع وفى بعض الأحوال يأتى هو شخصيا فى المذياع بصوته القوى الحنون الحازم ليقول كلاما جميلا لا تفهم كثيرا منه ولكنهم يقولون انه دائما يبتسم ٠

امتدت الأيدى واقتطعت أجزاء من الأرض الزراعية فى نهاية القرية ورشقت فى قلبها أعمدة الاسمنت والكهرباء ومواسير المياه وقالوا (وحده مجموعة) ووعدوا بتوصيل النور والماء الى القرية ، لكن مر زمن طويل قبل أن تدخل المياه والنور بيت العمدة ممتدتان فى داخل شوارع وحوارى القرية واجتاحت فى مسيرتها البيوت الطينية المتماسكة وكأنه عز عليهم أن تبقى متماسكة ٠

* * *

تتبدل بشكل سريع وغير عادى ، أجهزة الراديو فى بيوت كثيرة جرائد عليها صورة الرجل متجها جهة اليمين يراوده الأمل فى الاتجاه جهة اليسار ، وخرجت من معقلها الكلمات التى لا تخرج الا بالليل ، وليس فى كل الليل ، ولكن فى اليالى البهية مابين الرجـــل وزوجته ، خرجت واصبحت خبزا يوميا ، أو استعملت مدلولاتها ، تبدلت الملابس ، طلق كثير من الشباب الطواقى واطالوا شعورهم ، تركت النسوة الجلاليب السوداء مفتوحة الصدر وضاعت الطرح واسقطت بجوارهن وبجوار بعضهن ونقص طول الجلاليب فبانت سمانات الأرجل للنساء والبنات كما خرجت بعض النساء جهارا بملابس ملونة الى الشارع ولونت بعض الغريبات (من النســـاء زوجات الذين سافروا الى الخارج وتزوجوا من خارج القرية) خدودهن ووجوههن بألوان ذات بهجة فتمرد رجـــال كثيرون على نسائهن ولونت بعض نساء القرية وجوههن كذلك وكثرت الزوجة الثانية القادمة من خارج القرية فى قريتنا تعطل العمل فى الحقول اضطر الشيوخ الى الذهاب الى الحقل ، خرجت شائعات كثيرة خيم الحزن على القرية ، وبشكل محدد على بيوت الطين التى بقيت بعد تعديل الشوارع قال الشيخ ، الغد لا يحمل ريحا طيبة ٠

قال احول العينين نحن فى نعيم مقيم ٠

(هـ)

وقفت بأعداد كبيرة ، وفوهات مفتوحة ، يلقى بالشباب فيها حتى يقفل فيها الوسيع ، فترحل ، اخذت مابين مجند ، أو من سرح من الخدمة أو من عاد من حرب البلاد البعيدة ، يدقون الأبواب ، يسألون عن الرجال يدفعونهم فى جوفها ، فترحل ٠

نساء ، بنات ، عجائز ، شيوخ ، فتيان ، خفراء ، عمدة ،

أغراب ، أحول العينين ، هذا ماتبقى من القـــرية بعد أن حملت العربات الشباب الى البعيد ٠

فهمت بيوت الطين أنها ربما المقصودة دون غيرها بأخذ شبابها أرسلت رسائلها الى كل البيوت عامة ، قالت جرى علينا ما جرى عليكم ٠

وكان السؤال الثانى ـ الى أين ؟

صرح أحول العينين أنه رأى فى المدينة راديو يرى فيه صورة الناس وهى تتحدث وتأكل وتشرب ، يشبه السينما التى بالوحدة المجمعة ، والتى عرضت لهم فيلم عن البلهارسيا ٠

البيوت الجديد استعاذت بالله من الشيطان الرجيم واستعاذت بالله منه والبيوت الطينية قالت احتمال ولم يغرها الأمر بالمناقشة ٠

ـ ورغم ماجرى وتجمع الخلق حول الراديو وغناءهم المتصل فرح بعض الفتيان صغار السن وأحول العينين الا أن البيوت الطينية كانت متحرزة للأمر وان كانت تتمنى نجاحه ٠

فى ليلة تالية سمع دوى هائل صادر من جهة البيت الكبير ، وقام الناس من رقدتهم ، كان الخلاف قد وصل بين أحجار البيت الكبير الى أقصاه فلا ينفع معه ترميم أو اصلاح فانهار معظمه ، أنقذ عساكر الشرطة من موت محقق ، قال أحول العينين سيأتى هذا الخبر فى الراديو لكن الرجل الأسمر قال شيئا مهينا ومحزنا ، فتساءل الناس عن مصير أبنائهم وتساءلت الزوجات عن مصير أزواجهن ٠

وبرز السؤال ٠ ما العمل الآن ؟!

(١)

علا صوت الرجل بطربوشـــه وعمامته ، وزاد انفراج طرف الجبة وشد حزامه حول جسمه مرات ، أرغى وأزبد وكان نصيبى الرذاذ المتطاير من فمه فى وجهى ، كنت أول الجالسين فى الفصل صفق بيده منشدا ..

(محلاها عيشة الفلاح ......)

كانت تمر أمامى مخاضة الجامع وصرفها فى شارعنا ، أنا أخوض فيها بحذائى الثقيل (القديم) ، تمر من أمامى على رأس الشيخ خطاب وهو يشرح موضوع التعبير .

الناموس يهاجمنا كل مساء ، تشعل كومة التبن باتجاه الريح ، تطفئها الدخان يملأ المكان ، محاولات أمى لطرد الناموس مستمرة ، الفلاحون بألوانهم الشاحبة وفرحهم المهزوم بأنهم أكلوا ليلة الأمس طبيخا وغمزاتهم حول قيامهم بواجبهم الليلى ، واحتفالاتهم اللانهائية

بليلة العيد حيث سيأكلون بالتأكيد الكرشة والكوارع أو لحم الرأس · كنت أراهم يصلون أو يستحمون فى الجامع وقد علقوا سراويلهم على باب الحمام مليئة بمخلفات البراغيث وقد تحول لونها الأبيض الى الأصفر وبانت عراقيبهم الحادة التى تشبه سلاح المحراث مصفوفة متجاورة فى صفوف الصلاة ، عادة يأخذون فى المستشفى شربة الملح وحقن الطرطير ، تورمت عروقهم من كثرة الحقن ، سراويلهم مليئة ببقع الدم ، عندما يصل الواحد منهم ثلاثين عاما تسمع صراخه عند التبول ، يمشى فاتحا مابين ساقيه منتفخ البطن يعجز عن العمل رويدا يسير الى المقابر ·

هم دائما فى الحقول بجهدهم الخارق رغم الموت ، يجعلونها تنتفخ وتتفتح الأرض بالخضرة وتتعتق مصفرة مذهبة ، فى الجرن يأخذ الغرباء لصاحب البيت الكبير كل شىء ، لا يبقى لهم الا القليل، يحوزون الصفر باعجاب مذهل رغم مجهودهم الخارق ، تبدأ دورة الديون والزراعة ·

يقعون فى دائرة الحاجة ، يطأطئون رؤوسهم ، يدميهم القهر ، يهربون الى أحضان زوجاتهم ، تزداد الأطفـــال والديون ، تزداد عمليات الطرد يتحولون الى عمال باليومية ، يدفعون الى المقابر قبل نهاية أعمارهم يرحلون فى عربات النقل الى بلاد بعيدة ، يسمون ترحيلة ··

منهم من يتمرد يخرجون عن طوق الأرض يكســرون دائرة المجهول ، يفكون قيود الأرض عنهم ، يطلقون نكاتهم وضـــحكاتهم ينهشون كذئاب ضارية الأرض والسماء والبيت الكبير محلقين مع المعســـل والجوزة والدخان حتى ينتهى بهم الأمر اما الى القرى المجاورة للسرقة ويدخلون السجن أو الى مستشفى الصدر الذى لم يعد منه أحد تسرى رعدة من النجاة والأمل عندما يساق أحدهم

الى السجن أو الجيش حيث الطعام موجود يوميا ولا يهم مابعد ذلك ٠

لم أر أحدا ممن عاد من الجيش أو السجن الا وقد زاد وزنه ولمع شعره وأحمرت وجنتاه واتسع كم جلبابه ، لبس الســـاعة بالاستيك الأصفر اللامع تكلم كأهل البندر البعيد ٠

وعادة يتطوع من يذهب الى الجيش ، يعمل من خرجوا من السجن فى بيع الحشيش أو خدمة أهل البندر ، أو فى عمل ما بالمدينة ويصبحون خطا جديدا افلت من القبر وتميز عن باقى القرية ولم ٠٠

ـ فاهم ـ المهم الامانة ٠٠ لقد شرحت ووضحت وأنت فى العسل مع الملائكة ٠٠

زعق الشيخ خطاب فى وجهى بعد أن ضرب بيده على الدرج ضربة واحدة مفاجئة كسرت القلم الرصاص وألصقت الكراس على الدرج ٠

ـ فاهم ـ موضوع الريف ٠٠٠ فاهم ٠٠٠

قلت ذلك متلعثما محاولا البحث عن قلبى الذى فر هاربا من صوت ضربة الشيخ خطاب ٠٠

(ب)

لم يبق الا أنا ، لم تبق فى يده الا كراسة واحدة ، لم ينادينى باسمى حملق كذئب عقره كلب عوى ٠٠

ـ أين الزفت ؟

طارت الكراس عاليا حمامة فرت من صيادها ، وأطلق خلفها

ـ صفر على عشرة ٠٠

حاولت الوقوف ·· كانت الطلبة بالمقاعد تتأرجح والشـــيخ خطاب يلعن وأنا أحاول الفهم ـ حاولت أن أتكلم طردونى من الفصل، أخذت كراستى معى ، خارج الفصل أقف ، الصــــفر يملأ المكان وتتوارى أسفله العشرة أبكى ، على أطراف أصابعه جاء ، العصا تتقدمه ··

ـ ولماذا أنت خارج الفصل ؟

سأل ناظر المدرسة والعصا تستعد ، فردت الصفحة المزادنة بالصفر وأنا مستمر فى البكاء ، أخذ الكراسة ، قلبها ، قرأ من أول الموضوع أرخى العصا ، أكمل الموضوع قراءة ، تنهد ، بحث فى الكراسة عن مبرر للصفر ، لم يجد ، سار أمامى ، خلفه أسير ، أمام حجرة المدرسين وقف بداخلها نظر وقال :

ـ أستاذ سليمان ، صحح هذا الموضوع مرة أخرى ·

دق جرس الفسحة ، مازلت أنتظر ، دخلت الفصل ، عدت الى قريتنا كان الصفر يملأ المكان ، قريتنا صفر ، بيتنا صفر ، كل شىء صفر حتى أبى صفر ، كلهم معا صفر ، وبرز داخلى تحدى ، خطاب هو الصفر ·

(هـ)

وقفوا فى صفوف ، تكلم الناظر ، ادعى أن هناك مســـابقة سيجريها ليعرف مقدرة الطلبة على تذوق اللغة ، ومعرفة الأمانة والصدق فى التعبير ·

قرأ المدرس الأول موضوع انشاء عن الريف ، كنت أحس أن الشيخ خطاب هو الذى يتكلم ·

يدقون بأرجلهم ، يتكلمون معا ، ينظرون الى معاصمهم ، الملل يستبد بهم ، وكذا الطلبة مثل المدرسين ٠

انتهى من قراءة الموضوع ، صـــفق الطلبة بفتور ، ومن فى الصفوف الداخلية لم يصفق ، ولم أصفق أنا ٠٠

قرأ الأستاذ سليمان موضوعى

كانت قريتنا تحتل المكان ، تبعد المكان رويدا رويدا وتحتل المدرسة بكاملها ، هنا مخاضة الجامع ، هذا المصرف ، هناك الجبانة الناموس يتنقل ، الأوز والبط ، أكوام السماد أحس أننى أتنفس أنظر الى الطلبة ، صامتين ، شاردين ، المدرسون تتعلق عيونهم بالاستاذ سليمان ، لا يتحركون ، لا ينظرون الى معاصمهم ٠ انتهى الاستاذ سليمان من القراءة ، لحظات رهيبة من السكوت بجلال الموت تحضر الآن فوقنا ، فجأة ، انطلقت عاصفة من التصفيق ، وعاصفة من الدموع منى فقط ، استمرت العاصفة ، قاطع الناظر التصفيق ٠

ـ كلا الموضوعين حصلا على الدرجة النهائية ٠

ثم اذاع اسمى واسم الطالب الآخر ـ أستلم الكراسة من الناظر يقبلنى وأنا أبكى ، ينصرف التلاميذ ، يقف الاستاذ سليمان بجوارى يبصق الشيخ خطاب أمامى ويغادر المدرسة ٠

(د)

عم البلاء ، والمرض أهل الأرض
تدبروا أمرهم
أرسلوا وفدا الى كبير الآلهة
سافر الوفد على أشعة الشمس
ملايين الســــــنين

خلق بأشكال عجيبة

معهم وقف الوفد الأرضى

كان كبير الآلهة يكتب باستمرار

البياض الثلجى غطى رأسه تماما

تدلت لحيته طويلا

وقف الوفد الأرضى ملايين السنين

لم يتوقف عن الكتابة

ناداه كبيرهم مرات كثيرة

لم يتوقف عن الكتابة

صـــــــرخ .....

توقفت الريشة عن الكتابة

رفع رأسه المتعب

قال كبير الوفد

لقد عم البلاء والمرض أهل الارض

وجئنا لتحل لنا أمرنا

فأرفع عنا هذا

ذوى عينيه قليلا

نظر فى الأفق الأبعد

حاول أن يتذكر

قال هامسا : أعتقد أننى خلقت شيئا مثل هذا

ثم استأنف الكتابة مرة أخرى

البياض الثلجى يغطى رأسه

الريشة لا تتوقف

انتهى الاستاذ / أنيس من ترجمة القصيدة ، ضحك ، نظر ناحيتى

ـ أين أسئلتك يافيلسوف ؟

لم تكن لدى أسئلة ، كنت مذهولا ، أبحث عن طريق آخر ، وقد دق جرس الحصة ، ومازلت أسأل ملايين السنين ؟

لماذا لم يحلوا مشاكلهم ؟ ماذا حدث بعد ذلك ؟ أيمكن أن يكون قد نسيهم تماما ؟

عدت أنتظر ، الأسئلة تفرخ ، كل يوم أنظر الى القصيدة ربما كنت معهم لا .. لا .. ، لم أكن معهم ...

أنتظر الاستاذ أنيس ، غدا يأتى ، الحصة الثالثة لا أستطيع الانتظار مضى دهران ، حصتان ، دخل مدرس جديد ، الاستاذ / عبد العزيز مدرس اللغة الانجليزية ، سألته :

ـ أين الأستاذ أنيس ؟

ـ قريبك ؟

ـ لا

ـ فى أسوان ـ نقل

ـ نريد أن نكمل القصيدة

ـ أنا مدرس انجليزى مش عربى

ـ القصيدة المترجمة ؟!

ـ اجلس ـ افتح الكتاب ـ أنا ملتزم بالمقرر بلاش موضوع الأستاذ / أنيس ثانى .

(لا أفهم ، لا أحب ، لا أسمع ، فقط أين أسوان ، أبى بعد محافظة أسوان أبى جنوب الشلال ، الأستاذ أنيس فى أسوان هل الأستاذ أنيس اخوان مسلمين ، أبى يعرف أسماء الأدوية فقط لا يقرأ ولا يكتب بالانجــليزية ولا أمى ولا جــدتى ، يقرؤون القــرآن) القصيدة بلا شرح ، ظلت هكذا لكنها كانت دائما معى ، أكتبها كل عام فى كراستى الخاصة ، أسأل عن الأستاذ / أنيس ، أذهب الى المكتبة ، أبحث عن الكتاب لا أجده أجد كتبا أخرى صديقى الكتاب يشاركنى فى كل شىء ، لا يشاركنى فى حل واجب المدرسة ، عثرت عليه ٠ واحد فقط ، اثنين ، ثلاثة فقط يتحدثون وكأنهم من قريتنا ، قصصهم ورواياتهم ممتعة أخذوا منى كل شىء قروشى القليلة . ووقتى ، وأخذت العقاب لاهمالى حل الواجبات وسكنت المكتبة . وسكنتنى العفاريت ، أتكلم أثناء النوم ٠

سارحا دائما ، قالت جدتى : ده ملبوس لازم له شيخ ٠

قلت لها : طز فى الشيخ ، طز ، طزين

وقمت خارجا الى الشارع ٠٠

(أ)

انشغل الفلاحون فى تجهيز الأرض لزراعة البرسيم والفول ٠ قلت درجات الحرارة بشكل ملحوظ ، حذر أحد الفلاحين من انتشار الآفات ، زعم أحد الفلاحين أن هناك أوامر لزراعة الأرض بالطريقة الحديثة ، تســاءل الفلاحون عن الطريقة الحديثة ، حسم أحول العينين الأمر ، الزراعة على الريشة الغربية ، وتخطيط من الشمال الى الجنوب ، جفلت الفؤوس وحبات الفول ، حبات الفول لن تخرج بكاملها نباتا لأن الحرارة قليلة أصلا ، الجهة الشرقية تدفئها ، أما الجهة الغربية تقتلها ٠

أحس أحول العينين انه قال خطأ ، فأخرج من جيبه ورقة عليها صور لنبات الفول ، بهى طويل ملىء بالقرون والفول ، وكتب أسفله كلاما ، قال عنه أحول العينين ، هذا ما قلته لكم سابقا ٠

قال أحد الفلاحين : الرياح لا تحمل الخير ، غير مستقرة ، كأنما هناك من يحركها على هواه ٠

قال أحول العينين : ماذا أعطتنا الجهة الشرقية ، أقل القليل ، فلنجرب الزراعة على الريشة الغربية ·

قال أحد الفلاحين : أعطتنا ما يقيم أودنا لكن الريشة الغربية ستعطينا التبن أو الحصرم ·

قالت جدتى ، لا يأتى من الغرب ، شىء يسر القلب ·

قال فلاح لآخر : أنظر (أشار الى البيوت الطينية القليلة) انها قد قربت من الأرض ، انحنت كامرأة فقدت عائلها ، قصم الحزن ظهرها ارتفعت مؤخرتها عن رأسها ··

فى المساء ، جروا فى كل مكان ، تجمعوا فى كل مكان ، بكوا ، أحسوا أنهم منفردون ، الجدران لا تحميهم ، شقت النسوة فى البيوت الطينية ملابسهن ، جفلت البيوت الجديدة ، صمت أحول العينين ، علق شريط أسود على صورة الرجل الأسمر بملابسه المدنية ، سقطت طفلة صغيرة فى مجارى الجامع ، أخرجوها بين اليأس والرجاء ·

خرجت النباتات سريعا ، كبيرة وطيبة وريانة ، سيطر أحول العينين على كل شىء ، سخر من الشيوخ ، لعن الخبرة القديمة ، داعب أوراق النباتات قالت بيوت الطين ، ريح نتن تهب ، من فتح لها الباب ؟ وقف الرجل ذو البذة العسكرية وأرغى وأزبد ، وادعى أن الضباب يسيطر على كل شىء ·

قال الفتى بعد عودته من الحقل وهو يستعد للسفر الى المدينة أنه جس أحد قرون الفول ولم يجد بها حبوب ·

أرغى أحول العينين وأحضر قرونا بحبوب كبيرة ·

قالت بيوت الطين ، صدقت ، وصدقت أنت الآخر ، ولكن الحصاد آت ·

كان الصباح يدخل ككل صباح ، لوحظ أن الشمس تأتى على استحياء بيوت الطين تحبس أنفاسها ، فرحت بيوت الطين بخوف ، أعادت حكايات تحكى ، تمايلت رؤوس النخيل نشوى ، اذ دهنت ألوان الجير الكالح على البيوت ، رقصت المحاصيل فى الحقول ، قيل أن منازل قد عادت ، وأراضى قد آبت ورجال قد ماتت ، وحقا قد عاد ، وعدوا قد ولى ٠٠

كثرت الجلاليب البيضاء ، واللحى ، ارتفعت الأكف بالدعاء ، لكن ريح الغرب كانت قد أمالت النباتات فى الحقول ٠

قال موسم الحصاد أن التبن قد غطى أماكن الدراس ولكن الفول قليل الفول القليل نخر فيه السوس ٠

قال فلاح لأحول العينين ، الريشة الغربية تبن ٠

قال أحول العينين ، هناك خطأ منكم ، وعلى كل حال فالتبن لا غنى عنه للمواشى ٠٠

قال – اضربت المواشى عن تبن القمح وتبن الفول لا يصلح الا للحرق – أو البناء بالطين ٠٠

ولما كان البناء قد شاع بالأسمنت ، فلا فائدة ترجى من تبن الفول ٠

* * *

(ب)

سافر أحول العينين الى المدينة وعاد مع الرجال ذوى القبعات كالطاعون انتشر الخبر بالقرية ، لم يصدق أحد ، جرب ثلاثة من الفلاحين ، عادوا قبل المغيب بالجنيهات ، تزاحم الفلاحون أمام دار أحول العينين ، أرسلهم الى ذوى القبعات ، حفروا الأرض الزراعية

فى مدخل القرية صاحبها أخذ الجنيهات الكثيرة واختفى ، هجر الفلاحون الحقول ، تعثرت حركة الزراعة قل الانجاب ، عمت مقولات القلة من الأطفال ، قالت بيوت الطين ، هذا شر مقصود ، جرم ينفذ ، لا عاصم لنا الا بالتماسك ٠

عاد الفتى الى القرية حمل اليها رسائله السرية وأخذ منها رسائلها السرية عن والى المدينة ٠

(هـ)

زادت أسعار الحاجيات ، قلت القروش القليلة فى أيدى النسوة، اشتكى الفلاحون من قلة الأجر والمحاصيل ، أكلت فلاحة بطتها التى ماتت ليلا ولم تدركها بالسكين ، قلت القطط والكلاب فى القرية ، الرجل ذو البذة العسكرية فى مشتاه ، يستدفىء بالشمس فى الجنوب ، الرياح الباردة تجتاح كل شىء ، النباتات تتضاءل أمامها وتهلك ، الكتل الاسمنتية ترتفع شامخة ، خوازيق تخوض فى بطن الأرض ٠

دفعت البيوت الطينية ردودها على كل الرسائل باجابة واحدة الآن ، انتفضت الأرض ، تشققت قشرتها ، فى كل مكان البركان يصعد من شقوق الأرض ، يهدر ، يمتد ، ينمو بشرا ، يكتسحون بحناجرهم القوية كل أراضى الوادى ، امعاؤهم تطالب بالعدل ، أيديهم بالقروش والحق ، عقولهم بحريتها ، وصـــل البركان الى أقصاه ٠

غضب الرجل ذو البذة العسكرية ، ابتسم ، اعتذر بأنه لا يدرى، أخرج أنيابه ، تلوى بجسد الأفعى ، أنشب مخالبه فى ورود الحديقة الغضة ، سال بحر الدماء حارا على الأرض ، أقفلت أبواب كثيرة بمزاليج كبيرة ، على جموع غفيرة بينها الفتى ، تصاعدت أغانى شجية وقوية ، وحزينة ٠٠

قالت بيوت الطين ، أنه لوى زمام مهره وخان ٠٠

طالت مدة غياب الفتى عن القرية ، سجل الطريق الرئيسى وشارع داير الناحية لقاءات له مع رجال وشباب من خارج القرية ، اطمأنت لها البيوت الطينية وجفلت منها البيوت الجديدة ، قبل ذهابه الى المدينة ٠٠

كما أخبرت شجرة التوت أشجار السنط والكافور والكازورينا أن أباه قد انتظره طويلا ، انتظر القطار كثيرا تحت ظلها قلقا ، سافر الى المدينة وعاد يجر رجليه بحمل ثقيل كثقل الحزن الذى خيم على المدينة حين رأى باب الشقة بالقفل والشمع الأحمر ٠٠

أطلق أحول العينين كلاما مؤداه أن الرجل يبحث فى البلاد البعيدة عن ابنه فى سجونها ، كذب الرجل أحول العينين ، قال كأنما يعلن سرا اضطرته الظروف لاذاعته وهو فى الأسر ، ابنه مريض فى المدينة فى مستشفاها الكبير ٠

لوحظ تردد أحول العينين على البيوت المنفردة فى الحقول ، كما لوحظت أسئلته عن أشياء لا تعنيه ، واحتذا حذاء جديدا بدلا من حذائه القديم وملابسا جديدة ، طويلة ، واسعة ، بألوان زاهية ٠

تعود السكوت فى وسط الكلام أو فى أول الكلام أو السكوت نهائيا مطلقا فى كل جلسة أخبارا جديدة غير مؤكدة ، مدعيا أنه عليم ببواطن الأمور ٠

ولم تكن للامور بواطن عادية تختفى ، ولا سرية تكتم ، فقد وضح كل شىء ، لكن التردد والرؤية القليلة ، والرعب من النتائج أعطى الفرصة لاحول العينين أن يصول ويجول ٠

سرت رعشة المفاجأة ، ضحكت ، اشتاقت اليه ، قلبت الرسالة التى وصلتها وفهمت بيوت الطين محتواها ٠٠

ناحلا ، براق العينين ، قليل الكلام ، عاد ، ذهب الى أشجار التوت والجميز والسنط ، أقسم للطين والماء والأشجار ، توترت حركة الماء فى الترع والمصارف ، زاد كمية الماء طأطأت أشجار كثيرة أعطته الأرض سرها ، ومع هذا لم يفهم سر تلك العربات الكثيرة التى تفرغ حمولتها من الزجاج والالومنيوم والقيشانى العادى والملون بجوار الرمل والزلط ، وسط كتل الاسمنت ، والخوازيق المدقوقة من الأرض الى السماء ٠

لم يفهم معنى هؤلاء الرجال الاغراب الذين يحضرون ويحفرون الأرض بعد أن يرسموا عليها دوائر مستطيلات ومربعات بالجير لم يفهم تكالب الفلاحين عليهم للعمل ، لم يفهم قبعاتهم التى على جانبها نجوم وخطوط زرقاء وحمراء ٠ وتساءل كثيرا ٠ وسمع أنين الحقول لكنه لم يفهم ٠

(١)

كنت واحدا ، وكان واحدا ، وكانوا تســعة ، يخافونه ، ويرهبونه يسلط عليهم يديه ، يسرق ملابسهم عند الاستحمام فى الترعة ٠

كنت واحدا لا أخافه ، كان اسمه فتحى ، واسمى أحمد ، الآخرون متعددو الاسماء ، كان اسم أمه مثل اسم أمى ، أمى تفوقها فى الطول وأمه تفوق أمى فى الحجم والاكتناز ، تتشابهان فى البشرة كان جده لأمه نجارا وجدى لأمى مزارعا يملك حــدائق الفاكهة ، كان جده لأبيه وأبواه غير معروفين فكنى باسم أمه ، كان جدى لأبى فلاحا ذا أصول اقطــاعية ، منح هو وأخوه الأرض الزراعية والأرض البور ، أمام منازلهم مساحات شاسعة ، أخذوها بوضع اليد عليها ، استأجروا العمال فى الحقول وفى البيوت الكثيرة المليئة بالأغنام والماعز والجاموس والأبقار والأفران والكوانين التى لا ينقطع دخانها ٠

وبلا أى سبب ربما القراءة فى الآتى ، سمحوا للآخرين أن يبنوا البيوت فى المساحات الشاسعة وفى الأرض البور ، بنيت البيوت بشكل شيطانى التهمت المساحات كلها ، تأخر منزلنا عن مواجهة الطريق الزراعى ، أصبح فى وسط القرية ، زادت ارتفاعات بيوت الاجراء عن بيوتنا ، زرعوا ماشاءوا ، امتنعوا عن العمل فى حقولنا ، ماطلوا فى الاتفاق على شىء قرر جدى لأبى وأخوه أن يفعلا شيئا حاسما فماتا ..

ولما كانت زوجة جدى العم لا تنجب فقد رحلت الى قريتها الابراهيمية تحمل معها حمل بغلين من السبائك الذهبية ، وباعت الأرض بالقليل وأجرت جزءا منها ، واتخذت من اسماعيل التركى ناظرا عليها وباعت البيت لأبى . هدم أبى البيت وحفره كله ، ربما بحثا عن كنز مدفون وأعيد البناء ، دفعتنى أمى الى الحياة فى عام الكوليرا ، وتحديت الموت وبقيت وختمت بظهرى الطفل جميع حوائط المنزل ، كانت أمى تدثرنى بملابس اخواتى البنات القديمة ، تلفنى فى ملابس أبى ، تتركنى على الحـــائط ، تســـاعد أبى فى البنـــاء والتجهيز .

وكان جده لأحد أقربائه يبنى لنا المنزل اسمه على الناجيحى وكان فتحى مستأنسا لى ، أذهب معه الى أشجار التوت ، يصعد عليها يهزها لى .

يذهبون جميعا الى مدارس ههيا ، وحدى أذهب الى أبو كبير كان هذا يؤرقهم ويزيد وحدتى ، كانوا مجموعة يذكرون ، فأذكر أنا فى مقابلهم ..

كان أخا لأخت واحدة ، وكنت أخا لخمســــة اخوات بنــات ، وأخوين أولاد كلنا أشقاء ، لم تستطع فرحة أمى بى أن تستمر ،

ولدت يوم جمعة فى السادس من الشهر السادس من العام السادس بعد الاربعين فى مسيرة تمام القرن العشرين ٠٠

فقد نافســـتنى فى فرحة أمى بى الأحزان ، هم بناء البيت ، الكوليرا التى تتنفس فى كل مكان ، يطـــاردنى الموت ، واقبض بكل عمرى على الحياة ، لهذا نشأت طفلا منزويا فى أركان البيت أو أمام الباب :

(ب)

بعد عامين من ولادتى ذهب والدى باختيـــاره متطوعا الى الشام للحرب ، أطلق لحيته ، عاد يلبس الملابس البيضاء ، المسبحة فى يده ، مابين المغرب والعشاء يقول الحديث الدينى فى المسجد ، يجمع الفقراء والبسطاء ليعلمهم أمور دينهم ويصلى بهم ، ويخطب لهم الجمعة ويحل مشاكلهم ٠ لبست أمى الطرحة البيضاء وفتحت المذياع حتى آخره للقرآن الكريم عملت اخواتى البنات فى أعشاش الطيور وتربية الماشية والدواجن وفى اعداد الطعام ٠

توقف القرآن فجأة ــ وأذيع أن شيئا رهيبا حدث فى مصـــر أحسست أننى أريد أن أراه ، سمع أبى بحذر ٠٠

عامان وأنا أتابع خطو والدى وأوزع الماء مابين المغـــرب والعشاء على الجالسين فى المسجد من الدورق البلورى من ذلك الكوب البلورى ذلك الدورق التى رسمت عليه برقوقة ونصف برقوقة حمراء وورقة خضراء ، فى عامين ٠٠ حدثت أشياء كثيرة ، أخذوا والدى ليلا فى عربات كثيرة قلبوا البيت رأسا على عقب ، فاجئتنا الحياة المرة القاسية ، الأم ، الأب الحزم الخوف كل هذا فى امرأة واحدة ، الشرطة أحاطتنا بسياج من القهر ، والاقتحام وقتما يشاءون ٠

ذهبت الى بعض الاصدقاء لكن آباءهم حذروهم ، أقفلت الأبواب تبخر الاصدقاء لا أحد الا فتحى كان دائما على مصطبة بيتهم يرسل للأصدقاء فيأتون رغم معارضة أهليهم ٠

جلست جانبه فى هذا اليوم ، كان أكثر توهجا ، واحمرارا ، أرسل اليهم ، لم يحضر أحد ، اغتاظ وأمسك بنصف قالب من الطوب وقذف به النخلة الوحيدة التى كانت أمام منزلهم لاعنا آبائهم ، ناعتا أمهاتهم بصفات تخجل منها النسوة جهرا ، وتضحك لها سرا ٠

قمت معه الى الداخل وسألته : لماذا لم يحضروا ؟

صرخ : أسكت يلعن أبوهم وأبوك أولاد كلب ٠

وانخرط فى بكاء حار — وكانت أول مرة أرى فيها فتحى يبكى ، على صوت بكائه ٠٠ جاءت ، طيبت خاطره ، أنامته أمه وسحبت عليه اللحاف وسحبتنى الى الخارج ، أوصتنى بالسلام لأمى ولا أعود الا بعد شفائه ، المصلون يخرجون من المسجد ، أمى أقفلت المذياع بعد الانتهاء من الصلاة قطع البطاطس البيضـاء أخذت رؤوسها فى وسط بركة الماء الأحمر فى الأطباق متجاورة مع أطباق الأرز ، الطبلية تحمل كل الأطباق كلنا حولها ، قمت دون أن آكل ، نمت على الكنبة ، قلت للحائط لن آكل ٠

قالت نظرات اخواتى لماذا ؟

كان الحائط ينز بدموع فتحى ، وجهه الأحمر الملتهب ينام بجوارى على الحائط ٠ قطع المؤذن صلاة العصر ، عوت دقات الطبول تعلن موت أحد ٠٠

الى الخارج جرت أختى ، الى الداخل وجع يدخل عظمى ، رأسى تؤلمنى ٠

قالت أختى العائدة لاهثة من الخارج فتحى مات !!

الهواء البارد يقابلنى ، أجرى بكل عدى لعلى ألحق به قبل أن يأخذه الموت الجلاليب السوداء كتل من الحزن المتراص المتماسك، لا أستطيع اختراق هذا الحشد ، صراخ واستجارة الى السماء ، لكنه كان قد مضى ·

خرج النعش من الباب وسط الولولات والتعديدات والعواء ، صرخت أمه وكررت أخته الصراخ ، على فين يافتحى ، وأنا وحيدة يارب ، دا واحد وأنت واحد ، هو عشرة ، أروح فين يارب ؟

كانت أســـئلة بلا اجابات ، أجابت عليها فوهة القبرة التى استقبلت الاسئلة بالصمت وكذلك الجسد الأبيض الذى لف شوارع وحوارى القرية ، أطبقت فوهة القبر عليه وانسحبت الى الداخل وأهالوا على القبر التراب ، كنت متأكدا أنه عند عودتى سأجد فتحى ينتظرنى على المصطبة ، لكننى عدت الى بيتنا مرورا بالبيت الكبير لجدى الذى هجره وتشقق ، وأصبح مرتعا للبوم والخفافيش ، تنطلق منه بالليل الجنيات وأم ابريق ، وأبو رجل مسلوخة ، وصبيرة ، وأم سعيد ، أرض الشارع أمامه بالليل تصبح نحاسا تسمع دبة القدم فى قلبك ، دخلت أرتعش أخذتنى أختى الى الداخل ، وأرقدتنى على السرير ، وسحبت فوقى الأغطية ، قبلت على نفسى ، جاءت وأبدلت ملابسى ، وأرقدتنى على الكنبة ، وسحبت على بطانية ولحاف قائلة. فتحى ، عدوه ، يارب لا تفضحنى ، أطل فى عمره ، أبوه غير موجود، أنت أعلم بالحال ، ثم تنخرط فى بكاء حار ، وتمنع اخوتى بحزم من البكاء !!

(هـ)

كانت الأمطار التى انهمرت فى السنوات السابقة قد رسمت بتسربها بين ألواح الخشب وعروقه نافذة من الطبقة الطينية من الســـطح أشكالا وبقعا كانت تسجل حركة الماء فى الخشب ضد ومع الجاذبية

الأرضية ، الا أننى كنت أراها تتحرك ، كانت الساعات التى أقضيها وحيدا فى الفراش تجعلنى أدقق النظر كثيرا فى هذه الرسوم ، تحملنى الى بلاد بعيدة تفتح فيها طاقات كثيرة للولوج الى عالم الحيوان والجن ٠

كانت رؤوس الكلاب والطيور الفزعة من مطاردة الكلاب . فلا تجد أمامها الا الاحتماء بالبحر ، فتظل على سطح الماء ، بعضها غير سابح ، يظل معلقا فى الفضاء مجهد ، يدفع جناحيه بحدة فى الهواء يواصل السير لا يسقط فى البحر يتمزق ويتلاشى فى الفضاء ٠

أما الطيور التى يعجزها الهواء والبحر والبر فتنهشها الكلاب الضارية والطيور الجوارح ، خلا البر من كل شىء من الطير الأليف خلا ، بقى فقط الضوارى والطيور الجوارح ٠

كانت الدماء تنزف من النعامة ، التى أتعبها المســــير والجرى ، وأشبعتها الكلاب والجوارح نهشا ، وبقى على الرمال والصخور هيكلها العظمى شاهدا على احتدام المعركة ، كانت الكلاب والجوارح تهاجمنى فى الليل وتتعقبنى بالليل أو فى ساعات وحدتى ، محاولة نهش مؤخرة رأسى أو نقر عينى ، كانت تسير فوق السرير احس بثقلها فوق بطنى وصدرى وأحسها وهى تسير تحت المخدة ، وأحس أنفاسها وصوت تنفسها وكلما هممت بالصراخ ، كشرت عن أنيابها، أو فردت أجنحتها فى حدة ضارية وجهى بكل الضراوة والقسوة ، فأصرخ بكل قوتى الواهنة تجرى أمى واخوتى ، أكون غارقا فى عرقى وشحوبى كانت الطيور تقف فى هذه الحالة منتصــــبة فوق أعمدة السرير ، والكلاب قابضة على شباك السرير بأسنانها ، وعندما أشير عليهم لأمى تقول لا شىء وتمر بيدها فوق الأعمدة والشباك فتبتعد الطيور والكلاب الى أن تمر يد أمى ثم تعود ، تغطينى أمى ثم تقول أنت تحلم ٠٠

كنت أحس أنهم أيضا يخافون الكلاب والطيور الجوارح تلك التى أكلت النعامة وتريد أن تأكلنى ٠

كان الرجل الطويل جدا الذى خرج من البحر بذيل سمكة فى نهاية نصفه الأسفل يتقدم ناحية البر ، كانت ملامحه الغريبة وأسنانه البارزة الخارجة من فمه لدرجة أنه لا يستطيع قفل فمه ، وأذناه المدليتان حتى كتفيه ورأسه الكبير الأصلع وعيناه النافذتان كالخنجر من تحت حاجبيه الكثيفين ، كان هذا الرجل مايزال يتقدم من البحر الى البر الى أن اختار ركنه المعهود فى مواجهة السرير ، لم يكن يتحرك بعد ذلك لكنه كان يملأ فراغ الركن حتى العرش ، لا يغير نظرته الى وكنت لا أستطيع النظر اليه ، لاحظت أنه بلا زراع أو بالأحرى بلا زراعين ، لم يكن ذلك ملحوظا للتناسق التام بين أعضائه جميعا ٠

كان يحس بما يدور فى خاطرى ، أخرج لسانه الكبير والطويل جدا والتقط من على السرير ومن أعلى رأسى ذراعيه القويتين ، ركبهما بلسانه فى كتفيه ثم تمايل متعجبا ، مد يده الى الحائط المجاور فشـــــقت الحائط كشـــقوق الزلازل وخـــرج منها مجموعة كبيرة من رؤوس الكلاب المتزاحمة النابحة اللاهثة ، الـــكلاب متزاحمة تحاول الخلاص من هذا الشق لتنطلق ، كادت أن تفلت مهرولة ناحيتى ، صرخت برعب مدوى ، أمسك بالكلاب تحت أبطيه ، مال بها ناحيتى من فوق السرير وكنت أحس أنها لا تعوقه ، مال بها حتى كادت أنوفها أن تلمس وجهى وكان يبتسم حفرت فى الفراش هوة رعب بظهرى وفى السقف هوة رعب بصوتى أتت أمى مسرعة ٠ كان قد أدخل الكلا بـ فى شقوقها واستطال حتى نفذ من السقف وحدقت فلم أرى شيئا الا الحائط أمامى وكأنه قد تبخر أخبرت أمى بكل شىء ، فلم تقاطعنى بل أخذت عصا طويلة وضربت الركن الخالى

ومع أنى كنت أراه خاليا الا أننى استرحت وأحســـست بالراحة والنصر . زعقت أمى :

ـ من ينادى الأسطى محمد ليعطيه الحقنة .

ـ شدت الأغطية ، خرجت من الحجرة .

أحسست أن شيئا يعبث فى شعرى ، ظننت أنها المخدة أو أعمدة شباك السرير ، كان العبث يمتد حتى جبهتى ، حجب الضوء عن عينى شىء ما ، استدرت الى الخلف كان الرجل البحر يقف مبتسما ابتسامته المخيفة ويده على وجهى ، أحسست أنها بثقل الجبل . تكتم أنفاسى ، حاولت الصراخ ، مد أصابعه داخل حلقى وأخذ الصرخة من داخله ، أحسست بذراعى مثبتة ، وشيئا يقرصنى ، ثبت نفسى تماما ، ودفعت بيدى الأخرى الرجل البحـــر ، فحطمت زجاجات الدواء ، وسقطت من الشباك الذى بجوار السرير ، قال الأسطى محمد .

ـ بالشفا ان شاء الله .

(١)

خرجت من المرض اقل وزنا ، واكثر طولا ، واشد شحوبا ، يسكننى الصداع ، متخلفا عاما بكامله عن رفاقى ، لم تقم جسور بينى وبين الرفاق الجدد ، سكنت مكتبة المدرسة ، لاحظت أمى أننى أسهر بعد الدراسة كما فى أيام الدراسة ٠٠

وسألت ـ لكن لم تعرف ٠

قالت أختى ، روايات ، وشعر

تنهدت أمى : صرنا ملاحقين بلعنة الكتب والمباحث ، وتنهدت مرة أخرى ، نظرت ناحيتى تقرأ فى المستقبل ٠

ـ كفاك ياولدى ٠٠ يكفى أبوك ٠٠ أهو قدرنا ٠٠

حكيت لها قصصا كثيرة ٠ وأشعارا جميلة ٠٠

❊ ❊ ❊

(ب)

أخرج الحاج صديق ـ أبى مندور من منزله ٠٠ أخذ منه بعض حاجياته ليكمل سداد الدين وفوائده ٠٠

قلت له وسط الجميع والشمس على وشك المغيب والمساء يحاول أن يحتل الوسعاية ـ حرام عليك ياحاج ٠٠

ـ اذهب لأمك لتصرف عليك ٠٠ عيب ياولد ٠٠ اذا كنت رجلا ساعدها ٠

مد ذلك الحاج أصـــابعة الفولاذية وانتزع قطعة من جراح القلب ٠٠ نزف وزادت الأسئلة ٠٠

وبتربع المساء يدخن غليونه فوق القرية فينتشر ضبابا أسود اللون يلف العالم ويظلم الطرق ٠

* * *

(هـ)

كنت الاحظ ان امى تســـتبدل الاوانى النحاســـية بالاوانى (الالومنيوم) ٠

قالت للجارة ، انه خفيف ولا يصدأ وهو (الموضة) لكنها فى حديث هامس مع أختى سألتها عن فرق السعر **وكانت أختى قد عادت من سوق الاربعاء بعد أن باعت نحاسا واشترت ألومنيوم) ووزعت أختى فرق السعر على ما اشترته من حاجيات ودست فى يد أمى الباقى ٠ ظهرت صورة الحاج صديق ـ أمك بتصرف عليك ٠**

لعنت الحاج صديق وخرجت الى شوارع القرية أبحث عن أبى الذى رحل ليلا ولم يعد ٠

(١)

ظل البناء يرتفع ، تكهنت البيوت الجديدة بأنها بيوت جديدة أو مشاريع للتصدير والاستيراد ، بينما البيوت القديمة الطينية ظلت متماسكة آملة أن يكون مستشفى ·

نشر على حبال الدور الثانى الذى اكتمل قبل باقى الأدوار ـ ملابس ملونة ، ومنسوجات شفافة لم يستطع أحد التكهن باستعمالها اكتمل الدور الأول فكان مخزنا كبيرا به الأسمدة والبذور والمبيدات فى عبوات لامعة كتبت عليها أحرف أجنبية ·

وجزء آخر من الدور الأول سوى بالرخام وحبس خلف زجاجه الداخلى رجال وشبان وشابات يبتسمون فى وجه الداخل بوجوه حمراء وملونة ·

سأل أحد الفلاحين شيخ المسجد ـ هل حوريات الجنة مثلهن ؟

ـ لو كان لصام الواحد منا أبد الدهر ·

كان الرجل فى قميصه الملون بمكتبه الأنيق يحصى عدد الأفدنة التى رهنت والأفدنة التى تم الحجز عليها ٠٠

زادت العمال الشغيلة التى بلا أرض ، وزادت مساومات أحول العينين فى توريد العمال الى البلاد البعيدة ٠

تعودت النسوة على غياب أزواجهن ٠ ومن التراحيل يعودون اما مرضى أو جثثا – فى زيارات قصيرة – يلقون لزوجاتهم بالقروش القليلة وتضمهم ليلة واحدة وأفعال متعثرة متعبة ٠

(ب)

فجأة غاب أحول العينين عن البلدة ، افتقدته البلدة كثيرا قال أحد الفلاحين – نحن من غيره كالعرب بلا كلب ٠

دخلت عربة الى القرية – ليس دخـــول عربة بالشىء الهين صحيح أن عربات النقل تأتى الى المبنى الجديد حاملة الأكيس المعبأة والصناديق المقفلة وصحيح أيضا أن سكان الدور العلوى يحضرون فى عربات ملاكى ولكن الخفراء يضـــربون الأولاد الذين يتابعون العربات ولو على بعد ٠ وصـــحيح كذلك أن احدى زوجات أحد الشباب الذى عاد من بلاد بعيدة قد مرضت ويذكر التاريخ المنقول سيرا وحكايات أن زوجها أحضر لها سيارة حمراء اللون نقلتها الى الطبيب طبيب المركز ٠

لكن هذه العربة التى دخلت القرية عليها حقائب ٠ جالت فى شوارع القرية ولم يستطع أحد أن يخمن وجهتها ٠ ولكنها وقفت أمام بيت أحول العينين ٠

تابعها الرجال وتابعتها النســـوة وتعلق الأولاد بها ، لكن

وقوفها فى حد ذاته لم يكن مفاجأة ، المفاجأة وقوفها امام منزل احول العينين ٠

ـ ربما اقرباء له من بلاد بعيدة ٠

ـ ليس له اقرباء فهو مقطوع من عامود تليفون ليس له فروع او اقرباء ٠

نزل من العربة رجل بجلباب أبيض وعقال أبيض عليه من أعلى حلقة سوداء ونظارة على عينه ٠ وأدار المفتاح فى قفل الباب تقدم رجل من القرية ليسأل الغـــــريب ـ ان كان قريبا لأحول العينين (بربش) لكنه صرخ :

ـ أحول العينين !!

رد عليه

ـ الحاج محمد أبو العينين ٠

ـ بربش حمد لله على سلامتك

ـ اسمى الحاج محمد أبو العينين ٠٠

أعاد المفتاح ـ استنجد الحاج محمد أبو العينين (احول العينين) بالرجل لاحضار وعاء به كيروسين لغمس المفتاح به ٠

عدة محاولات حتى لان القفل ٠

نظفت امرأة شاب يجاور أحول العينين منزله ـ ودخل أحول العينين بعد استراحة قصيرة فى منزل جاره ٠

واعدا هذا الجمع بأن يحكى له عن سفره الى البلاد البعيدة وأدخل حقائبه وألقى بعلبة فارغة للسجائر حمراء اللون عليها صورة القط الأسود ٠

فى الصباح جلس أحول العينين مع جاره الشاب (الذى جلد) وأخرج من جيبه ورقة مالية وطلب سكرا وأخرج كيسا ملفوفا شايا أسود اللون ذا أوراق عريضة وعلبة سجائر حمراء وبيضاء على ظهرها صورة ذلك القط الأسود ٠٠

(هـ)

قال انه لم يكن يعرف شيئا عن هذا ٠ ولكن رجلا من الذين يعطونه العمال فى الجزيرة قال له عن السفر ٠ جمع المال من تعبه ومن العمل مع رجال البنك والمقاول ـ سافر للعمرة ظل مطاردا من الشرطة حتى حصل على عمل هناك ٠ مد اقامته وظل حتى عاد يحمل مالا يشترى البلدة كلها ٠٠

أطلق خبيث لم يعرف بعد اشاعة أن أحول العينين ذهب خادما مع رجل من رجال المقاول ولكنه لم يبق كثيرا فى خدمتهم لمغازلته زوجة الرجل فطرده وجلس أمام المساجد يشحذ الصدقات فى موسم العمرة والحج ٠٠ حتى حصل على عمل فى البناء ، بعدها اتفق والمقاول على توريد العمال ـ فأحضر معه خمسين عقدا وزيادة يبيعها الواحدة بألف جنيه وهكذا أصبح أحول العينين الحاج محمد أبو العينين قال الشاب المجلود : هل وضعت نقودك فى هذه الحقائب كلها ؟

ـ البنك

ـ مش فاهم

ـ فى البنك بالدولار

ـ مش فاهم

ـ طبعا ـ الدولار أغلى من الجنيه ـ الجنيه بلا رصيد ـ البنك يبيع ويشترى بالقليل ـ السوق السوداء وبور سعيد بها البيع والشراء بالغالى والكثير ـ نضعها ودائع فتربح البنك مقسم كل قسم له أقفال ، كل قفل له مفتاح مع مدير البنك ، يضع نقود كل واحد فى مكان حتى لا تختلط مع بعضها ٠ كل بنك له فروع فى البلاد البعيدة ، أعطيها النقود أو الشيك أو المستند ، يرسلونه فى الحقيبة ذات الارقام نقودك ملفوفة عليها اسمك ، توضع فى القسم الخاص بك حتى اذا فاض بالنقود أرسلوا لك ابحث عن بنك آخر ٠

قال له كيف تربح النقود وهى لا تعمل

شرب آخر رشفة فى كوب الشاى والقى بالسيجارة فى الشارع ونفض جلبابه وأطلق زفرة ببسمة ساخرة ٠٠

ـ غدا تعرف ٠

ثم مال على اذنه أريد عشرة شبان أقوياء كل واحد معه ألف جنيه ليقوموا بالعمل معى ويعودون بأقسام لهم فى البنك قد فاضت فيها النقود ٠

ـ ألف جنيه !!!

ـ هذا ثمن فدان أرض ـ لا أحد يملك فدان فى بلدتنا ٠

مشى أحول العينين ، أقفل بابه بالمفتاح بعد أن أدخل كيس الشاى وترك علبة السجائر وما بقى فيها للشاب ٠

قال للشاب ـ أنا لا أريدك أنت ٠٠ لكن من أى بلد من البلاد التى حولنا ٠٠

قال الشاب ـ أريد أن أذهب معك ٠٠ سأعطيك هناك من عملى ياحاج ٠

سار أحول العينين بجلبابه الأبيض وعقاله فوق رأسه خارج القرية وسار الشاب فى أثره يلهث ـ والنبى ياحاج ٠

(د)

نظر الشاب فى عمق عينيه ، كان ثابتا كالصخر بحجمه الصغير ولونه الأسود على ظهر علبة السجائر كان القط محدقا ٠ رأى فى عينى القط البلاد البعيدة تلال الذهب والمال ، القسم الخاص به فى البنك ، أنهار العسل النسوة الجميلات ، رأى أحول العينين يسير على البعد ، خلفه طابور طويل من العمـــال ، يتوقفون ، يحفرون يعبأون الحقائب بالذهب صرخ الشاب ـ فلتكن لى وحدى ٠٠ الحقائب لى وحدى ٠

اقترب الشيخ منه :

ـ السلام عليكم ٠ ٠ماذا ياولدى ؟

ـ الذهب ، الفلوس ، لى ، لى وحدى

ـ الذهب ! الفلوس ! وماذا بك ؟ (ثم أمسك الشيخ بعلبة السجائر من يده) ما هذا ؟

أفاق الشاب خجلا من حلمه وان كان يتمنى أن يعود الحلم ٠

ـ لا شىء ٠٠

قال الشيخ ـ يقولون حضر أحول العينين ـ هل هذا صحيح ؟

قال الشاب متلعثما ـ نعم لكن الفدان الأرض ٠٠٠

ثم فجأة ـ لكن ياشيخ كم تساوى دارى ·· ألف جنيه أليس كذلك ؟

أو أقل قليلا لابأس سوف أبيع ··

قاطعه الشيخ :

ـ ماذا بك ياولدى ؟ ·· أتريد بيع بيتك !!

لم يفعل أحد فى القرية هذا ·· والى أين تذهب ؟

قال الشاب :

أنا أبيع مؤقتا وعند عودتى أشترى أرضا وبيتا و ····

الشيخ : واذا لم توفق فى سفرك ·· هذا من عمل أحول العينين

أفاق الشاب وكأنه يبصر الحقيقة للمرة الأولى ·

- بلدتنا هى الوحيدة التى بلا مئذنة ٠٠ كل البلاد مســـجد ومئذنة البلدة مسجد فقط ٠٠ ما رأيك ياحاج ؟

قال الحاج (أحول العينين) كأنه لا يسمع ٠

- أريد عشرة شبان أقوياء ٠٠ كل معه ألف جنيه ٠٠

يدخل آخر - ألف جنيه ثمن فدان أرض

- المئذنة ٠٠ الحاج يبنيها على حسابه ٠٠

قال الحاج وأنا أريد أن أخدم فقط ٠٠ كل عام عشرة شبان بعدها تصبح البلاد غنية ٠٠

احتج الشاب : نحن نعرف كيف نذهب الى هناك

قهقه أحول العينين :

هل تعرف البسبور ؟ هل تعرف (الفيزا) ؟ هل ركبت طائرة

اذ كنت لا تملك حمـــاره تركبها ، ثم قبل هذا وبعده هــل تعرف

(خيرك يازملة) ٠٠ ثم وهنا السـر هل تعرف أين مكان النقود ؟

اذهب (ثم دفعه فى كتفه) لا تنتظر ٠٠ اذهب ٠٠

ـ المئذنة يراها الناس من البعد ٠٠ فيعرفون البلدة ٠٠ كل مئذنة لها شكل خاص ٠٠ ولكن كيف يبصرون المسجد ٠٠ لو كان مصلى ولها مئذنة أشرف من مسجد كبير بلا مئذنة ٠٠ ما رأيك ياحاج ؟

نفض أحول العينين جلبابه ، هب واقفا ، لابسا خفا جلديا قائلا :

ـ يبيع فدان ٠٠ يعود ليشترى عشرة ٠٠ أنا لن آخذ شيئا كله للسفر ، لقد قدمت خدماتى حتى لا يأتى اليوم الذى يقال فيه لم يخدم أهل قريته ٠٠

سار أحول العينين من وسط الجلسة دون أن يلقى لهم بالسلام الذى انتظروه منه ٠

تبعته العيون ٠٠ (سار) ٠٠ سقطت العيون فى عمق العيون ٠٠٠ (ابتعد) ٠٠ ارتفعت الصدور ولم تهبط ، حلم كل منهم بالجنيهات الهابطة من السماء (اختفى أحول العينين تماما) حلم كل واحد منهم بالعربة تدخل القرية ـ بالجلباب الأبيض ـ بالعقال ـ بالحقـائب ـ بزوجة مثل موظفات البنك حورية من الجنة « أبقت الاصابع على الجنيهات الوهمية توقف الزمن وظلوا يتابعون الحلم ٠

قالت البيوت الطينية : أولادنا ٠٠ لغيرنا ٠٠ أحضنى يأرض كل الجذور حتى الجاف منها ؟

رأى ميزانا كبيرا قد نصب ٠٠ هو الميزان العظيم ٠٠ القرية كلها فى كفة الميزان ، وهاهو جبل من النقود فى الكفة الأخرى تراقص الميزان ثم رجحت كفة القرية ٠٠ تقلب الشباب المجلود فى فراشه ٠

كان الميزان فراغا ، حمل النقود يهبط مرة أخــرى فى كفة الميزان فى الكفة الأخرى نامت زوجته وطفلته هم أن يخطف ابنته لكن يده امتدت الى جبل النقود ٠٠ كانت النقود صلبة ككتلة من الأحجار ارتمى عليها وجد نفسه معلقا فى هواء فى سماوات القرية وقد رجعت كفة زوجته وابنته قامت زوجته واحتضــــنت طفلتهـــا وغادرت كفة الميزان فأرتفعت الكفة الأخرى الى أعلى وأطلقته كقذيفة فى أعالى النخيل ثم هوت الكفة بالنقود على الأرض وهو يسقط من هذا العلو الشاهق صرخ ٠٠ كانت صرخته لا تخرج حاول أن يمسك فى شىء ٠٠ أيقظته زوجته ٠٠ مالك ؟

كان قابضا بكلتا يديه على خصيتيه ومابين أفخاذه حتى أحس أن نارا تندلع فيما بين ساقيه ٠٠ اعتدل فى نومه ٠٠ جف عرقه ٠٠

قام الى خارج الدار وبال بجوار الحائط ·· دخل الى فراشه كانت زوجته ترضع الطفلة ·· شرب من القلة ·· جلس مفتوح الساقين ينظر الى طفلته وثدى زوجته وزوجته مدد جسده ونام على ظهره ·· تحت رأسه شبك ذراعيه ·· نامت عيناه فى طبقة ضبابية كانت عربة التاكسى تخترق شوارع القرية هو يجلس فيها هبط منها ·· أنزل الحقائب ·· فتح الحقيبة الأولى كانت بها جثة زوجته فجلس القرفصاء وأخرج علبة سجائر عليها صـــورة القط وفتحها كان بداخلها جثة ابنته تركها وفتح الحقيبة الثانية كان بها جثته هو ·· قام فزعا خرج من الحجرة الى خارج الدار نظر الى السماء رأى رؤوس النخيل تتمايل كانت تنظر اليه ·· استقامت احدى النخلات ورمت ظلها عليه ففزع وكان القمر يمر من خلفها ·· عوت الذئاب فى البعيد فردت عليها الكلاب من أمام البيوت وخرجت تجرى فى كل اتجاه ··

قالت بيوت الطين انه الطوفان ·· يلقى بالنفايات لكن تبقى الجذور ·

ســـار الشاب عدة خطوات أمام منزله لكنه أحس أن النخيل لن يدعه يمر ·· أحس بالحصار ·· عاد الى داره ·· جلس فوق الفراش ولكنه لم ينم ·

- ١٣ -

(١)

تعجبت بيوت الطين المتلاحمة مما يحدث فى بيت أحول العينين الحاج محمد أبو العينين وقررت أن تفعل شيئا . لكن غياب الفتى عنها جعلها بعد تلك الأحداث السريعة والغريبة لا تستطيع أن تقرر شيئا ..

أوفدت بيوت الطين والد الفتى الى المدينة .. طـــالت مدة الانتظار تحسس الفتى فى خطواته الأولى تراب القرية ورائحة الفول والبرسيم والهواء البارد .. وتعجب كيف بعد طول هذه المدة عن تلك الروائح .. قالت شجرة الكافور يبدو أنك تنسى ؟

وهو الذى يميز كل الروائح فى الظلام وقد حكى يوما لشجرة التوت أنه يحس أن الأيام مختلفة عن بعضها فكل يوم له رائحة ولون ووزن خاص بخلاف اليوم الآخر . وانها ليست متشابهة كأسلاك البرق . أمنت شجرة التوت على كلامه وقالت نحن نحس بالألم

بالجفاف وسكون العصارة ، فى الربيع نحس بالحياة كأنثى تحمل وتخرج البراعم حاملة كل الشوق للحياة لكن براعم الورق لا تعطى كل شىء فهى تحور البراعم الورقية الى براعم زهرية تحمل الازهار ثم تأتى أيام التلقيح والاخصاب وتتفتح البيويضات انها تكون الثمار، ثم تكون ذات طعم قابض ومر ، ثم يرهقها انها ستبصق من فم من يأكلها فتنضج الثمار نفسها · فتزداد حلاوة وانتظر كشجرة عاشقة مرور الفلاحين وأولادهم مع زوجاتهم فألقى لهم بالثمر الحلو فوق رؤوسهم · احتفظ لنفسى فى أطرافى وفى أعلى قمتى بأشهى الثمار لمن يركبنى ويصـــعدنى فيأخذ حلوى كله · أو أنفخ بداخله بذورى وألقيها فى مواسمها بجوارى فتنبت جيلا أرعاه لتستكمل مسيرتنا معكم قال الفتى : اتركيهم للصدفة ·

قال شجرة التوت : الصدفة !!

لك أن تعرف أنه ما ان يتم تكوين البذور بداخل ثمارى الا وأرسل رسائلى السرية فى باطن الأرض للفلاحين وقوفا كانوا أو نيام بأن موعد زراعة التوت قد آن · كما أغرى الأطفال أن يقطعوا أفرعى ويغرسوها على شواطىء القنوات والمصارف والترع فيحتضن الطين نهاياتها وينبت جذرها ويمدها بكل ســـوائل الحياة فتحيا براعما وفروعا وأزدهارا وثمارا ·

قال الفتى : هو الاستمرار اذن ·

قالت شجرة التوت ، الزحافات ، ايدى الفؤوس ، القصابيات ، النورج كلها من التوت ، ولم تسمع أن أحدا قد قتل آخر بعصا من التوت ·

* * *

(ب)

قبض الرجل على ذراع الفتى قائلا :

ـ لماذا توقفت ؟ مازال الطريق طويلا ..

اجتازا مدخل القرية ودروبها ـ توقف الفتى أمام بيت أحول العينين أخبره والده بالحكاية كلها ..

تعجب من نفسه ، تعجب من القرية ، لكنه لام نفسه أولا ..

* * *

(جـ)

تعجب الفتى حين أوى الى فراشه أن الشيخ كان معه عذب الحديث رغم صرامة عينيه كلماته القاطعة تحمل أكثر مما تحمل الكلمات ، وأعمق من الآبار لكنها بسيطة كل البساطة .

أفلتت الصرخات فى آن واحد من جميع بيوت القرية ، حذرت بيوت الطين أن الأمر ليس سهلا ..

قال أحول العينين .. العين لا تعلو على الحاجب

هب الفتى من نومه ، خرج أمام المنزل محاولا أن يفهم السر

ـ ضابط النقطة صفع الشيخ ..

دق الباب كان خلف الباب ، ثقيل الصمت ، ينظر فى البعيد

ـ ما الخبر ؟

ـ لا شىء ..

خرجت الكلمات بين الزفرات الحارقة بعد جهد جهيد بطيئة ، تسقط عميقة ومدببة تدمى القلب ··

ـ كنت فى البنك ، سألت عن حساب الأرض راجعت الموظف فى الحساب أوضحت له أننى أسدد فوريا ، كيف أكون مديونا للبنك بألف جنيه ؟

أصر على قوله ـ راجعته مرة أخرى ـ فصرخ فى وجهى . توجهت الى مدير البنك فأمرنى بالخروج هدد بالحجز على الأرض لم أخرج قلت لهم أن نجوم الظهيرة أقرب لهم من لمس أرضى ، استدعوا ضابط النقطة الذى كلم المدير ولم يستمع الى حاولت أفهامه جرنى الى الخارج ، امتنعت عن السير معه فـ ·····

❋ ❋ ❋

(د)

ما العمل ؟

ـ أترك هذا الموضوع الآن ·

أقفل باب الحديث أمام الفتى ··

قام من فوره أخذ يدور ويلف فى شوارع القرية حتى خرج من شارع داير الناحية الى الحقول ، دارت رأسه لرؤية البيوت المتنافرة جلس تحت شجرة التوت ، نظر الى حقول البرسيم والفول سائلها بصوت عال ـ ما العمل ؟

قال أحول العينين ـ كنت أود أن أراه قبل سفرى ـ لكنه مريض لم تعرفه العافية من يومها ·

تأهب الشبان العشرة للسفر ، رهنت وبيعت ، بيوت وزوجات وحقول٠٠في الصباح لاحظ الفتى أن أحدا لم يقابله فى شوارع القرية؟

سار فى اتجاه خارج البلدة فوجد أن الطريق الأسفلتى قد ازدحم بكتل من البشر لا حصر لها ٠ كانت تحيط بنقطة الشرطة وقف بينهم حاول أن يسألهم ، لكنه لاحظ أن كثيرا منهم يدخلون فرادى ويغيبون كثيرا ويخرجـــون والدموع فى مآقيهم وقد تهدلت عمائمهم وتورمت أقدامهم ٠

ــ هل جئتم لوداع أحول العينين ؟

ــ الضابط قتل

فزع الفتى ونظر ناحية القرية كانت رؤوس النخيل تتمايل فى دلال كعروس ليلة زفافها نادى الضباط الآخر على الفتى ٠

دخل ٠٠ قال لهم أنه لا يعرف أى شىء عن الموضوع ، وأنه عادة فى المدينة ٠٠

قالوا له نحن نعرف كل شىء عنك

عشرة أيام والقرية فى حصار والتحقيق مستمر ، زار خلالها الشيخ كان أكثر اشراقا ٠٠وبهاء عيونه ضاحكة لكنه مريض،وعندما جاؤوا للتحقيق معه وجدوه فى النزع الأخير ٠٠

سمع أصواتا ترددها جدران بيت الشيخ :

يعود الكل الى واحد يتوحد فى طمى الأرض ، فى الأشجار ؛ فى بيض الأطيار يمتد مع الترع والحقـــول ، يعطى للنبــاتات طعم الكبرياء ٠

قام الفتى فى حيرة من أمره ٠٠

يفهم ولكنه لا يصدق يحاول ، يدور فى شوارع القرية٠٠حاول مناقشة الأمر مع أبيه ، تذكر بربش الذى مات فى حوض الاسطبل امتد به حبل ذكرياته ٠٠

تلتف القشور فوق بعضها فيزداد الليل سوادا ٠٠ التفت كورقة الكرنبة فى الحقل ارتفعت على ساق قصيرة ، خطوطها الأرضـــية تتوارى من كبرها وتجاورها معلنة أنها قد نضجت ولما يأست من اعلان نضجها انفجر من باطنها شـــمراخ زهرى يخترق الأوراق والحجب ليعلن أن أوانا جديدا قد بدأ وأن عهدا قد ولى وأننا نكون البذور الآن ، وأن الأوراق تتساقط واحدة تلو الأخرى فاتحة مجالا للشمراخ الزهرى للثبات والتفرع وبدأ الليل يسحب قشوره رويدا رويدا فتقل كمية السواد فوق القرية وأن آخر القشور هذه رطبة تعلن أن آخر هذه القشور يشقها فجر رطب دامى الألوان ٠

هبت معه نسمات الصباح فأمالت شواشى الزروع فى الحقول وأطفأت جذوة نار السهارى فى انتظار الفجر فى الحقول وأعلنت أن الشمس على وشك البزوغ ٠

لكن شيئا من هذا لم يحدث !!

استطال الليل وكمش النهار ورغم ظهور الشمس ، كما لاحظ

الساهرون فى ورديات الحراســـة الليلية أن الفجر قد دخل القرية متسللا على استحياء وأن الشمس كانت تخفى وجهها خلفه النخيل وأن الفتى الذى ظل ساهرا حتى احمر بياض عينيه لم ينم وأن شيئا غير طبيعى بالمرة قد حدث · وأن الفلاحين فى أثناء سيرهم للحقول تلفتوا الى القرية أكثر من مرة وتكاسلوا فى الخروج الى العمل ، وأن البيوت الطينية القديمة المتماسكة كانت تئن لم ترسل رسائلها السرية لكن شيئا ما مكتوما ظل يجوس فى طرقات القرية الداخلية وفى الحوائط وجذوع الأشجار كما وقفت النخيل مبهورة الأنفاس واتسعت عيونها بالدهشة وتصلبت أوراقها ·

عند الظهيرة رفع الفلاحون رؤوسهم ناحية الشمس ·· استقامت ظهروهم ، نادى كل منهم الآخر فتحت الأفواه والأحداق دهش القوم وبسملوا فقد توارت الشمس كسوفا خلف قرص معتم فى وضح النهار حوقل القوم وبسملوا واستعاذوا بالله من الشــيطان الرجيم لكن النسوة فى القرية أحست كل واحدة منهن فى آنواحدبرجفةفىالجسد وانقباض فى القلب وتململت الأجنةفىبطونالنساءوالمواشى··عوت الكلاب ولم تنبح كعاداتها خارت البهائم فى الحقول توقفت عن الحرث والرى ومع هذا لم يرفع أحد من الفلاحين يده بالعصا ليجبرها على السير ، لكن صوتا حادا رفيعا سرى فى آذان أهل القرية كلهم فى آن واحد ، حتى الذين ذهبوا الى المدينة فى ذلك اليوم سمعوا نفس الصوت فى نفس اللحظة ·

هرولت النساء ناحية الصوت ، كان بيتا من تلك البيوت الطينية القديمة المتماسكة قط سقط وأن أشجار وعروق الخشب التى كانت عرشا له قد التصقت بالأرض وأخذت تغوص بكاملها داخل الأرض ·

هرول كل الفلاحين الى البيت الساقط لكن تخلف عنهم فلاح واحد ، قطع كرنبة من الحقل وأعطاها لزوجته فقذفت بها أمام الباب

معلنة أنها لا تصلح للأكل وأن بذورها لم تكتمل للحصول على البذور منها ـ جلس غاضبا أمام بيته الجديد ينظر الى الكرنبة الملقاه ٠

ـ فى تلك اللحظة كان الشب المجلود الذى لم يسافر مع أحول العينين يحاول مع الفلاحين اللحاق بالأخشـــاب الغائصة فى قلب الأرض لكن بلا جدوى قالوها بلا اتفاق ولا صوت ـ الشيخ رالد الفتى والفتى عندهم الحل ٠

ذهبوا طابورا طويلا اليهم ٠ دخلوا باحة الدار المفتوحة وكان الفتى قد أدرك الأمر بمرته فترك الباب مفتوحا وكان الشيخ يرقد ملفوفا فى ملاءة بيضاء ، كشفوا عنه الغطاء كان مغطى بعباءته ، كشفوا وجهه وجدوا أن الرجل قد مات ٠

رأوا كلهم ٠٠ كلهم لم يبح أحد منهم للآخر بشىء٠٠فهمواكلهم صمتوا كلهم ٠٠ كلهم لم يدركوا ماذا يصنعون ٠٠

دفعة واحدة نظروا كلهم للجسد كان يرتفع رويدا رويدا من على الفراش الى الهواء ٠ معلق ذلك الجسد ، طاف بانحاء وأركان البيت،أعلى من رؤوسهم٠٠صار٠٠خرج من البيت،حاصرتهم الحيرة والتردد ، تابعوا سير الجســـد ، طاف بانحاء القرية كلها وقفت النساء والأطفال والكلاب والمواشى خرساء عند مرور الجسد طأطأت النخيل هاماتها سقطت شجرة الكافور العتيقة ماتت سبع حمامات فى الهواء أثناء طيرانها وخرج الجسد الى الحقول يلف عليها توقفت المياه عن الجريان قفزت الأسماك الهاربة ميتة من الماء تشققت الأرض وزفرت نارا فذبلت النباتات ، تمهل الجسد قليلا عاد الى البيت ٠

اجتمع الرجال والنساء وأعدوه للدفن ٠

قال – يعنى كم العدد ؟

قلت – ثلاثة آلاف ..

– اذن ستبنى المأذنة ، بلدتنا هى البلدة الوحيدة فى وسط الثلاثة بلاد التى بلا مأذنة .

– ماذا تقصد ؟

– سوف تعرف أننا أيضا أولاد بلد ، بينما ينتهى هذا العام بثلاثة آلاف عند البائعين تكون قد كتبت ثلاثة آلاف أخرى أو ثلثمائة وهكذا ، لو بيع الواحد بقرش فسوف يكون لديه آلاف الجنيهات خلال أعوام قلائل ونحن لا نريد كثيرا ألف جنيه واحدة لا غير .

– الحكاية ليست بهذه البساطة ، ثم أنه كتاب واحد مطبوع منه ثلاثة آلاف نسخة ثمن النسخة الواحدة عشرون قرشا تكلفت طبع وما الى ذلك عشرة قروش ويأخذ الموزع نصف الثمن أى لو بيع كل الكمية أحصل على ما دفعته فى الطبع وهو بالتالى رهن حجرة الصالون .

ـ لا تخف من الحسد أنت من أولاد الأصول ، أعطينى المبلغ وأنا سأرتب لك الأشياء · لقد فرحنا والله عندما كتبت اسم قريتنا فى الكتاب ·· أصيل ··

ـ اسمع سوف أشرح لك أكثر ··

حاولت قدر طاقتى أن أفهم (حنكش) ماذا يعنى طبع كتاب ولكنه رفض الفهم ولما كان حنكش زميلى فى الكتاب ولما كان أحول العينين أيضا ولما كان أعرج وأعمش فقد كان يمثل نوعية خاصة من القرية · بالرغم من عدم جذورها الا أن لها القدرة على التأثير كما أنها انعكاسا للواقع المباشر وغير المباشر فى جانبه الوضيع هم واقفا واضعا خفه تحت ابطه ·

ـ يعنى ·· لا نقود ، ملعونة هذه القرية ، كل من لبس فيها بدلة هرب منها ، طز فى كل الأفندية والمتعلمين ·

خرج حنكش وأنا أعلم تماما ما سيفعله حنكش ·

فهو الذى أفهم أهل القرية بأنه من العـــار أن تكون قريتنا الوحيدة التى بلا مأذنة وأنه من العار أن يصعد دعائنا الى الله منخفض وفى وقت طويل للوصول · حيث أن كل القرى الأخرى بها مآذن والدعاء من أعلى المأذنة بلا مقابل موهما أهل القرية بجمال صوته ، مدعيا أنه كان يقرأ فى الحرم النبوى الشريف القرآن الكريم فى الفترة التى غاب فيها عن القرية ·

فى حين أن بعض الأفراد الذين عادوا من هناك قالوا أنه كان يجلس ليشحذ أمام المسجد ، ولما كنت أعرفه وأعرف كلامه وسحره فقد قررت الذهاب اليه ··

فى الصباح كان قد سرى مفعول حنكش فى القرية · فلا أحد يلقى السلام ولا أحد ينظر ناحيتك وترى سياج العزلة ينمو شيئا

فشيئا بينك وبين أهلك وأحبائك ٠ وقد وقف حنكش ليرقص طربا مخرجا لسانه لك على سياج العزلة ٠

قلت فليكن المساء ٠

كانت أصـــوات البهائم عائدة الى حظائرها والحمير محملة بالبرسيم ومواكب المساء تحمل الفؤوس المتعبة تدخل فى رحم الليل محملة بروائح الروث والطين متعطشة الى الراحة فى أن تتمطى على الافران فوق الحصير فى قاعات الفرن ، دخلت عليه بيته ، قام نصف وقفة ، أهلا أصر على الصـــمت بيننا حاولت افهامه قال قاطعا كالسيف ٠٠

– الدفع أولا

– لا أملك شيئا

كان ساهما فى البعيد لا يسمعنى يطل بربع عينيه الباقية على مساحات الطين المفرود على الحائط محاولاتى كلها يكللها الفشل ، حنكش يملك الصمت والقرية ٠ دلو الانقاذ والاتصال بالقرية يملكه حنكش ٠

كانت خطواتى الى الخلاء لا تصل الى الأرض أحس أننى أهوى فى ضياع وأن سائلا لزجا يكتم أنفاسى وينز على كلى ٠

كنت قد وصلت الى خارج القرية ، كانت حقول الفول تتمايل فى كبر ودلال ونوارات الفول تنظر الى بعيون ٠ عيون القطط ٠ تنظر الى ولا أستطيع النظر اليها ٠ استطالت سيقان الفول وركبت فوق بعضها مكونة مآذن عالية لا تطاولها أى مئذنة ٠ كانت تميل ناحيتى ٠

اسمعينى ياحقول الفول والبرسيم ما قلته لحنكش هو الصدق لما لا تصدقونى وشوشت حقول الفول والبرسيم بعضها ولم تتكلم

وظلت تتمايل٠٠صرخت٠٠صدقيني أيتها الحقول ماذاتريدين مني ، أأصبحت غريبا عنك الى هذا الحد ، وأصبح حنكش قريبا الى هذا الحد٠٠لا يتكلم أحد منكم بالنميمة فى حقى،قلت الحق فقولى ياحقول الفول والبرسيم سرت حول حقول الفول حتى ركن مثلت الكوبرى الحديدى ، كانت زراع آخر حقل للفول تمتد مشيرة الى البعيد تابعت اشارة الزراع كانت تنتهى عند طرف المثلث بمنطقة صغيرة من البور فى نهايتها شجرة صفصاف كالقوس ساكنة كجنية الليل ناشرة شعرها فى ضوء القمر ، زادت كمية الحزن فى قلبى فبصقت على شـــجرة الصفصاف لكن راعنى أن ظلى يطابق ظل شجرة الصفصاف وأن البنايات الأسمنتية ترتفع فى قلب حقول الفول والبرسيم ، سرت فى طرقات القرية وحيدا حزينا ٠ نفس الحزن الذى قهرنى يوم موت والدى ٠

الم يكن هذا حنكش الذى أطلق الحكايات عنى قال يومها أن البنك أرسل لنا أنه لا يريد نقودا منا وأنه قد اكتفى فى حين أن البنك قد أرسل لنا أخطارا بالحجز اذا لم نسدد ماسحبناه من نقود لتعليم وزواج اخوتى ٠

من يأخذ بخاطرى ، من يمنع عنى هذا القهر والعجز يا أيها الناس ارحمونى ردى لى صوتى يانخيل قولى يابيوت الطين فتاك المعذب ينتقل عبر الدروب يمسك المستحيل من يومها حين كنت أمر بالمضيفة أوزع السجائر والقارىء يرفع صوته ويخفضه كانت لمبات الكهرباء يتفجر من داخلها النور يرسم خطوطا مستقيمة تخرج من نقطة واحدة الى عدة نقاط ترسم أشعة بألوان كأشعة الشمس فى الصباح ، تلك التى كنا نحاول أنا وحنكش الهرب تحتها من الكتاب كنا نحاول أن نصطاد شعاعا واحد ندخله فى أعيننا وننظر فيه كان حنكش لا يجد صعوبة فى ذلك لم يكن يملك الا ربع عين فهو لايصطاد ولا يدخل لها الا شعاعا واحدا بينما كنت أجهد نفسى لاصطياده

كانت الكرات الحمراء والزرقاء والصفراء والخضراء تسبح و تسبح فى السديم تنتظم فى بعض الحالات عقدا حول رقبة احدى نساء القرية التى كانت تتلصص علينا ونحن نستحم بعد الهروب من الكتاب ومن سيدنا ..

قال حنكش ونحن على طرف الترعة ــ اخلع

ــ قلت له : سيعرف

ــ من يقول له ؟

ــ العلامة

ــ الصق عليها مشمعا

ــ لا .... لا

ــ يابن الأفندى أنتم تستحمون كثيرا ، قل له أمى غسلتنى أمس ..

ــ لن أكذب .. فأنا لم أستحم أمس

ــ يابن الأفندى ــ ثم دفعنى فى الماء فجأة ..

أمسكته من قدميه وحاولت ألا أنزل الماء ، ثم قلت له .

ــ لست خائفا ..

خلعت ملابسى كان حنكش يلعب فى عورته ، ويضـــع عليها التراب فعلت مثله قفز أمامى فى الماء ، غاب تحت الماء ، ظهر من الجهة الأخرى ، خرج الى الشط وقف ينتفض أمامى ، بجانبى مياه الترعة بلونها البنى تسير ناحية الشمال فى موجات صغيرة متتابعة ارتفعت فى الهواء ، ينهض الماء كجدار صـــلب يقابلنى ويحتوينى داخله محدثا صوتا عاليا ، تغلبت على خوفى وسبحت ثم ظهر رأسى فوق الماء كان حنكش بجوارى ، قلت له .

ـ لن أكلمك بعد اليوم ٠

ـ أمسكنى من عنقى وقال ســـوف أقتلك يابن الكلب ، أنت جميل وتحبك الناس والنساء ، ماذا تفعل مع خضره وفاطمة أم على. لماذا يأخذونك الى دورهم ويطردونى ماذا تفعلون فى غياب أزواجهن ، والله سأقتلك ٠

خلصت نفسى من قبضته وخرجت ســـريعا الى الشاطىء ، أخذت ملابسى وأخذت أعدو فى اتجاه القرية عاريا ٠

أنت تعرفين يادروب القرية أننى بريئا ، لم أكن بريئا كليا فخضرة وفاطمة أم على يحببننى ، تأخذنى الواحدة فى حضنها تبدأ هى أنا لاعرف شيئا ولا ما يحدث معهن ٠٠

كنت قد وصلت الى باب دارنا ، ليس فيها أحد قالوا لى الشيخ قد مات ٠

- ١٦ -

٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ٥٢ تمام يافندم

- منتصف الليل ٠

٢٥ ، ٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ، تمام يافندم

- الرابعة صباحا

كانت تحت أقدام ٢٥ ، ٢٦ ، ٠٠٠٠٠ فى برجه الكبير ، المعتمد بشكل كلى على عامود ضخم من الأسمنت ، يمسك بشدة أحجارا كبيرة من الدبش الأبيض الممتد فى شكل بيضاوى ، أو حلقى ، مكونا سورا ضخما ٠٠ كانت تحت أقدامه قناة بها قليل من الماء ، يستمر بها طوال الليل نقيق الضفدع !!

أدمنت وحــدة قلبى ، سأمت النقـــاش ، أتمتع بهذا الأسى الشفيف الذى يغزونى دون سبب واضح أدركه ٠٠

أتابع نقيق الضفدع ، موسم التزاوج هو ، ينادى الذكر على أنثاه ليلقحها ، تختار من يترنم لها بالغناء ، التلقيح موافقة ٠ كانت

الضفادع تنق بشكل غير عادى يفزعنى عند مرورى على الطريق الزراعى المؤدى الى قريتنا ٠٠ ثم اعتدت هذا النقيق ، حتى أصبح غريبا الا أسمعه ٠٠

خمنت أنه ربما الساعة السابعة ، كان المساء قد حضر أثناء نومى ، وسيطر على المكان ، لا أحد حولى ، لكن كان الضفدع مازال ينق ٠

آه ياجدتى مازالت آثار الضرب على ظهرى سياطا من لهب وأنهارا من دم ، أكنت ياجدتى تدركين أنه بضربك لى تبدئين صفحة العذاب الأزلـــى ، وتكتبين وثيقة القهر ، لمـاذا ياجدتى ؟ لم يكن هناك ما يستدعى كل هذا !! ماذا حدث بهذا العالم عندما اتسخ الجلباب قلت لك ياجدة وأنا بين يديك ، بين الخوف والرجاء ، قلت سقط الجلباب رغما عنى ، صدقينى ياجده ، لقد وضعت طرفى الجلباب فى سروالى من الأمام ومن الخلف أيضا ، غصت بأقدامى فى الطين ، نزلت الى المياه ، كان الوقت ليلا ، الضفدع لا يكف عن النقيق ، أريد أن أعرف مايقول ، حاولت اصطياد الضفدع فتحت عينى عن آخـــرها الجلباب مازال عاليا ياجده ، كانت الحدقتان تبرقان فى الليل ، مددت يدى بعد أن جعلتهما فخا ، بكل الهدوء جعلتهما على وجه الماء ، رويدا اقترب ياجده ، سأمسكه ياجده ، يرف وجهك وكلماتك ، ارتعشت ، رجفت ، سقط الجلباب فى القناة كنت أعرف أنك لا تكنين كل هذا الاعزاز للضفادع ، لكن قلت لى أن القناة بها ثعبان بقرون ، خفت ياجده أن يكون ما أصـــطاده ثعبانا ٠ يقتلنى ياجده ، ارتجفت ، سقط الجلباب صدقينى ماكنت أريده أن يسقط ، ماذا حدث ، كل الفلاحين يعودون فى المساء وحتى فى الصـــباح وملابسهم متسخة ، لماذا لا تضربهم زوجاتهم أو حتى أمهاتهم ، كل الأولاد متربون ومتسخون ، لماذا ياجده حرام ياجده قلت لك هذا وأكثر ، وعندما وجدتك مصممة على ضربى قلت لك ياجده لو تركتنى

فستزورين بيت الله الحرام ، سيقول لك الناس ياحاجة ســـتلبسين الملابس البيضاء ، ستضعين يدك على شباكه وســتقسمين للناس بحياة من وضعت يدك على شباكه ٠٠ ارحميني ياجده آه ، ٠٠٠٠٠ ستحجين ، اتركيني ، ٠٠٠٠ حرام ياجده لكنك لم تسمعيني ياجده ، رضيت بضربي ولم ترضى ببيت الله الحــرام لماذا تصلين اذن ، ارحميني ياجده ٠٠ آه ، ارد ٠٠٠٠

جمعتني أمي من تحت أقدام الجده ٠٠ ، متعبا ، مقهورا كارها للجدة ٠٠ صامتا ٠٠ لا أقوى على الوجع الذى اقتحمني أخذتني أمي فى حضنها ٠٠ كنت قد بولت على نفسى ، خلعت عنى ملابسى كانت ملابسى الداخلية ملتصقة بجسدى بالدماء كنت نازفا شهقت أمي صرخت ، بكت ، فبكيت ، أخذتني أمي الى حجرة الفرن مسحت دمائى وغسلت رأسى بالماء الدافىء من الأبريق الأسود ، ألبستني ملابس أخرى كنت مستمرا فى البكاء ٠٠ غسلت لى وجهى ويدى وقدمى ،

ـ يلعن أبوها ٠٠

ـ عيب ٠٠

ـ لأ ٠٠ يلعن أبوها ٠٠ لماذا تضـــربني الآن والدى ليس موجودا ؟

« ياحبيبى يابابا » ٠٠ يلعن أبوها كافرة ٠٠

طيبت خاطرى ٠٠ أعطتني البيضة ٠٠ بيضاء دافئة ، جميلة احتضنتها فى كفى ، استلقيت على الحصير فوق الفرن ، أحسست أننى أريد أن أبول فوق الفرن وقفت ، بولت من فوق الفرن أسفله خلف باب الحجرة ، أعقب البول رعشة سرت فى جسدى رغم الدفء

جلست وشددت البطانية على أنامل البيضة ، أعد جريد النخل فى السقف ، قلت فى الصباح سأحضر قفصا من جريد النخل وأصطاد الضفدع ·· رأيتنى بالليل فى القناة أسبح متســللا وفى يدى قفص الجريد ·· أحاول اصطياد الضفادع وعندما سقط الضفدع فى القفص ·· ظهرت الجده من وسط القناة ·· ألقيت بالقفص وصرخت فزعا ·

··· بسم الله الرحمن الرحيم ·· ماذا بك ياحبيبى كنت أريدك أن تنام ·· قم ·· قم النهار طلع من زمان ·· نظرت حولى كنت على الفرن والبيضة مهشمة · اختلط القشر بها كنت أبحث عن شىء يجعلنى أبكى ·· نظرت الى البيضة المهشمة وظللت أبكى ·

قالت أمى لا تغضب سأحضر بيضا كثيرا ··

أخذتنى فى حضنها ·· وأنزلتنى من على الفرن ·· وأخرجت الابريق الأسود ـ غسلت رأسى ووجهى ، مشطت شعرى وأنا جالس أمامها ·· خرجت الى خارج المنزل ، جلست على القش تحت الشمس فى الضحى ، أعطتنى أمى (المشنة) بها الخبز وطبق به لفت مخلل ، وبيضتان مسلوقتان ، حضرت الجده جلست بعيدا ·· لم تتكلم ، نظرت ناحيتى استدارت الى الجهة الأخرى ألقيت قشر البيض قريبا منها نظرت ناحيتى وبصقت ، تمتمت بكلام لم أسمعه ·

رأيته كان هناك على الأرض قريبا منى ، تركت المشــنة فى صمت رأيت أنه مناسب لوجه الجده نزلت من على كومة القش ، أمسكته فى يدى ، كان ينبض بين أصابعى وفى كفى ، كانت تنظر فى الجهة الأخرى ، ناديتها ، نظرت ناحيتى ·· بكل قوتى وآلام جسمى ألقيته فى وجهها ، صرخت ، كان الحجر قد فتح فى وجهها أنهارا من الدم ، جريت بكل عمرى فى دروب القرية ، آلاف الأيدى خلفى تحاول

الامساك بى ٠٠ ملايين الاقدام خلفى تحاول اللحاق بى ٠٠ الدروب طويلة وضيقة أحس بنار العالم تنبعث من وجهى ، لفحنى الهواء البارد وامتدت أمامى مساحات خضراء ٠

٢٧ ، ٢٨ ، ٠٠٠٠ ، تمام ياأفندم

الصباح على وشك البزوغ ٠٠٠

كان نقيق الضفدع قد سكت لكن ليس تماما ٠٠ فمازالت هناك أصوات مازالت تنق ؟

تمددوا على الأرض ، العيون العشرة متجهة الى السقف ، جاحظة ٠٠ يحاول الجفن أن يطبق على العينين ، يتحاشى سـهام الضوء النافذة الى قاع المخ ، جاعله آلاف المطارق تعمل بلا توقف كان اليوم الرابع قد دخل فتح الباب ودفعوا بآنية الطعام كعادتهم ، لكن لم يتحرك أحد ٠٠ كانت الغلالات البيضاء تزداد تكاثفا أمام عينيه، أحس أنه يغرق فى بحر بعيد حاول أن يمد يده يلمس أحد الرفاق ، كانت المسافات القريبة ـ البعيدة ـ والتى بطول ضعف ذراع ـ بعيدة ، كالمسافة بين الأرض والشمس ، حاول جاهدا أن يحرك هذا العضو الساكن ـ تقبل الحركة هو ـ أحس بدبيب النمل يسرى فيه ـ حاول أن يرفعه ، أزاحه جانبا بعيدا عنه ، لمس يد رفيقه باردة متصلبة حاول أن يبحث عن أصـابعه ، سـرت حركة من يد صـديقه تلاقت أصابعهما ، شـدت الأصـابع على بعضها ، تبعتها التنهدات الميتة الخفيضة ، سرت رعشة الكهرباء فى الجسدين ، ارتفعت المياه من أعماق الآبار الى العيون فاضت المياه فتساقط الفيضان من زوايا العيون الخارجية ، أقفل بصعوبة عينية ، أزاح كمية الدموع التى

فى محاجر العينين ، تراءت له البيوت المتراصة ، الحوارى الضيقة ، مكتبته المتزاحمة ، الأطفال المتربين ، سمع فى أذنيه صوت أمه ٠

– ياحبيبى يا ابنى ٠٠

تعجب فتح عينيه – أمه ماتت منذ سنوات – كانت بملابسها البيضاء وطرحتها البيضاء جالسة فى سقف الزنزانة ، تلقى فى المسجد درس العصر وحولها حلقات من النسوة،شارحة بيديها معنى ماتقول آه يا أمى ٠٠ أين أنت الآن ؟؟ ٠٠ ليس صحيحا فى هذا الزمان ما تقولين !! كيف أغير هذا المنكر – بيدى ؟ يا أمى السوق الآن لعديم الضمير والمرتشى ، والكاذب ، والمنافق ، يا أمى لم ينصلح حال الدنيا كما وعدتنى ولا وجدت بنت الحـــلال التى حلمت بها طوال العمر ويبدو أننا نسير فى طريق واحد ، بدأه الوالد بالنفى مابين مصر والسودان ، وأنقذه السد العالى بمياهه المخزونة فى البحيرة وأعاده الينا ، فمن ينقذنا ولا سد عالى ولا نيل ولا مياه لكنه الجمر ٠

آه يا أمى من هذه الدنيا التى لا تسمع عشرة شهور طويلة لم أر قريتى لم أتحدث مع من أحبهم لم أسمع صوتا ، من يومها يا أمى، يوم أن طرقوا الباب بليل غيب فيه القمر – بيوم لا ينسى ، يوم جاءوا كالسيل الذى لا يرحم ، صدقينى هم مصريون يا أمى ، لكنى كنت أحس أنهم غير ذلك ان تلك الملامح لا تنتمى لى ، انها تنتمى لشىء آخر ، يحمل رائحة نتنة يبيح ويبيع كل شىء ، صدقينى ما تعودت أن أكره أحداً ، أنت تعرفيننى عشقت كل شىء ، كم كتبت رسائلى للحقول والأشجار والأطيار ان هذه العيون التى بلا رموش ، هذه الآذان التى استطالت حتى أصبحت كآذان الحمار ، هذه الاقدام التى تتبعك ليل نهار ، ليست منا ٠

كانت الريح تعوى فى الخارج والبرد يجتاح الشارع ، فتحت الباب بملابسى الخفيفة ، خارجا من حضن الفراش ، يومها كنت

قد نمت قليلا استغرقت القراءة كل الوقت ، لكنهم دقوا الباب لم أعرف من اتوقع دفعنى تيار الهواء البارد والسيل الذى لايرحم٠٠قلبوا كل شىء فى طريقهم ٠٠ اجتاحوا كتبى وملابسى ٠٠ انتزعوا صورتها من فوق مكتبى (صباح) تلك التى عرفتك عليها،قلت يومها انها جميلة ومدهشة ، هكذا ياولدى تفوز بزوجة تريحك من يومها لم أرها ، لم أســـمع عنها الا ما قاله الأصدقاء يوم الزيارة الرابعة ، رغم ان صورتها لم تفارقنى وأنا بالسيارة الى البعيد كنت أراها واقفة بحزم معك أثناء عذابى ، وحزنى ، فى لحظات كثيرة كانت تأتى من النافذة تجلس معى تمسح عنى تعب اليوم تطيب جراحاتى كنت أحس يومها أن شيئا ما يغزو قلبى وأن سكينا يغوص بعمق وأننى حزين بأضعاف حزن البشر ، لم أكن أجد مبررا لهذا الحزن ، الأصدقاء والأهل أراهم فى الزيارة ومن لم أره أسمع أخباره ، وكنت دائما أتوقعها فى كل زيارة لكنها لم تأت الا أن ما قاله الصديق يومها كان كافيا لأن يكلل بهجتى فى يوم الزيارة بأحزان وأكاليل شوك ٠

ـ أبى يصر على زواجى ـ لا تغضب منى ، قد تطول غيبتك ، والدى يخشى ربط مصيرى بك ، أكتب لوالدى بامتناعك عن كل شىء سيسعى لدى المسئولين ، يخرجك ، ينقلك الى وظيفة أريح ٠ وأربح لها مكانة ٠ لم تكن الكلمات تحمل الا معنى الخيانة ، وبدأ الطريق واضـــحا والأمور ليس لها احتمالات كثيرة ، ولما كنت قد اخترت مسبقا فاننى أدرك أنه الفراق ٠

لم سمع عنها شيئا ـ ولا أريد ، كفانا طعنا فى أرق وأرقى ما نملك ـ كان قلبى الذى ملأته الجروح يحتضن بكل قوته ـ تلك الأزقة والبيوت القديمة ٠ أنت تعرفين يا أمى محبتى للشيخ ، لم أدرك يوم فاتحته بالزواج منها رده بأبعاده٠٠أرىالآنعيناهالواسعتين القويتين وصمته المطبق ـ دقق أولا ، أوصيك بالتأنى ، انها واحدة ،

فى حياة واحدة،كان الرد قاسيا مؤلما كالجراحة شافيا من كل خطيئة لكننى لم أدرك كنهه الا هذه الأيام ٠

كنت يا أمى فى لحظات ضعفى أنتظرها ، ليتها تهل من الشباك ، لكنها لم تأت ٠٠

بددت الأيام ذاكرتها وذكرياتها ، آه يا أمى من الأيام والليالى التالية للزيارة ، أفاق المستحيل تفتح غرفة التذكارات ، أراها تخطر نحوى فى لهفتها ، منتظرة ميعادى بثوبها البنفسجى ، مابين فرعى النيل كنت أراها كنفرتيتى تجلب الخير والحب والجمال ، قلت لها وقلت٠٠كانت بوابات القلب مفتوحة على مصراعيها لتدخلتكونجزءا غالى من عالمى لكنها نزعت نفسها بالدم ، خرجت تاركة خلفها بقعة دامية ، كانت هذه البقعة قد بدأت فى الادماء يوم قابلت والدها ، ذلك الرجل ذو المنصب والجاه ، يوم أحببتها لم أكن أعرف ابنة من هذه ولا كان يعنينى هذا لكنأفزعنى فيها ضعفها، كانت شروط الرجل قاسية تفتح بابا واحدا للفرار وتقفل كل الأبواب كنت صريحا مع الرجل شارحا له ظروفى وآمالى فى المستقبل أفزع الرجل ونزلت بيننا حوائط الصلب ، لم يكن لدى ما أتنازل عنه فلم أتنازل ، تعود الرجل من الجمع التنازل ، التصقت بى عجبت وفرحت منى ، قالت أبى معجب بك ومشفق على ظروفك ٠

و ٠٠٠٠ لم تكمل ، لم أعطيها الفرصة لتكمل ، ليتنى تركتها تكمل لعل ذلك كان قد وفر على هذه السنوات من الارتباط بها ، عندما تكلم الشيخ معى بهذه الطريقة اتهمته بعدم الفهم ، وكررت فى دخيلة نفسى فرق السن وصراع الأجيال وتناسيت فى غمرة فرحى، خبرة الرجل ٠

صدقينى يا أمى لست نادما عليها لكن كيف فاتنى وأنا أخضع

كل شيء للعقل وللاحتمال أن لا أضعها تحت الاحتمال والتحليل ؟؟ هل لأنها كانت (كما أراها) النسمة التى تظللنى فى هجير رحلتى ٠

هل لأنها كانت البهجة الكاسرة ، والفرحة المباغتة فى أيام كسرت فينا الفرح ، وباعتنا للحزن ؟ كنت متأكدا من زمن قبل لقائها أن الفرح لا يسكننى ولم أكن متشائما ثغرات كثيرة لم أكن أراها وأنا لاصق عينى بالصورة ظهرت لما بعدت وبعدت ٠٠

كانت الغلالات البيضـــاء تزداد خفوتا ويدخل المساء محللا كل شيء ٠

قطعوا النور عنا ، تقلب أحدنا ٠٠

ـ عطشان ٠٠ أسنانى تؤلمنى ٠٠

رد أحدنا ـ أصبر ٠٠ سيبدأون فى التفاوض

ـ قد تنصركم غمضة عين ٠٠ صبرا

دخل عنترة فى ظلام الحبس أسأله كيف تنتصر على عدوك ؟

قال : نتبارز بالسيوف حتى تتكسر النصال ، ويطيح كل منا نبدأ بالمصـــارعة يأخذ اصبعى تحت أسـنانه وأصبعه تحت سنانى بسلاح الآخر نبدأ بالمصارعة يأخذ اصبعى تحت أسنانه وأصبعه تحت أسنانى أكاد أصرخ لكنى أقول لنفسى صبرا سيصرخ هو أولا حتى اذ ما صرخ أفلت أصبعى من تحت أسنانه ، وأعض على أصبعه بكل قوتى فأهزمه ٠

دفع الباب ، دخل ضابط الدور ٠٠

ـ المأمور يريد واحدا منكم ليعرف طلباتكم

ـ ليس هنا واحد ـ كلنا ـ الطلبات عنده فى عريضة مقدمة

ـ لا يستطيع أن يتفاهم معكم جميعا

ـ الطلبات عنده ، أو فليأتي للحديث هنا ٠

ذهب ولم يعد

فجأة أتى الضوء المقطوع ، بعدها بيوم استجابوا لكل مطالبنا كنا دخلنا يومنا السابع ٠٠

فرحنا كثيرا ونحن نلبس الملابس الجديدة ونستحم ، الماء غريب عن جلودنا اكتشفنا أننا بعظام بارزة حديدية ، فرحنا ونحن نحلق ذقوننا ، نخلع ملابس السجن ، ويعودنا الطبيب ، نوبات من الاسهال والصداع وآلام الاسنان والتبول نقل ثلاثة منا الى المستشفى ٠

كانت مرحلة قاسية عشرة شهور بسجن وسبعة أيام اضراب ان المدة لاشك طويلة وأطول منها مايأتي لأنهم يريدون الاحتفاظ بنا والا لتركونا نهلك ٠

كانت الجرائد لا تحمل أخبارا تفهم ، لم تصل أخبار عن زملائنا في المستشفى فقط بعد رحيلهم بيومين ، أتى جنديان أخذوا كل حاجاتهم ٠

عدت من دورة المياه وجدت صديقي الباقي معي يلم حاجياته ، قلت له خير ٠

ـ ذاهب الى المستشفى

قالها وهو يضع وجهه في الأرض ولا ينظر نحوي ، والجندي الذي على باب الزنزانة يبتسم والمسجونون العاديون يصرخون من خلف زنازينهم في الأدوار المقابلة ٠٠

ـ افراج ياسياسة ٠٠

لم أكن أعرف أنه مفرج عنه ٠٠

قلت له ـ سلم على الزملاء هناك

أجسست مدى اتساع الزنزانة ، وكان المساء يريد أن يدخل مبكرا ، جلست وحيدا لم أتناول الطعام ، حاولت الصعود الى الفتحة الوحيدة فى الزنزانة ولكنها كانت عالية ٠٠

كنت أرقب النافذة بالليل ، نفس هذا الليل يلف قريتى الآن أبحث فيه عمن أحبهم ٠

على حين فجأة ارتفع نقيق الضفدع ٠

ضغط على الجرس كثيرا ، تخيل أنه ربما أقام عدة أبواب خلف باب الشقة ، ضغط مرة أخرى لاشك أنه أخطأ فى العنوان ، كانت اللافتة النحاسية تعلن غير هذا ..

التعب والارهاق يسيران ببطىء فى عظامه أحس أنه غير قادر على الانتقال من مكانه وتخيل المدى المميت لهبوط خمسة أدوار دفعة واحدة ضغط على الجرس مرة خرى سمع عزف بيانو رقيق - ولا أحد ، تنهد ، أراح الحقيبة التى ازدادت ثقلا .

أخذ نفسا طويلا - سمع صوت احتكاك قدم بصدر الأرض . تخيل أنه أت من الشقة لكنه كان قدمه هو . رائحة العرق جعلته يتقزز من نفسه ، ملابسه المتسخة والوسيعة عليه بشـــكل ملحوظ **حمام ساخن - حلاقة الذقن - غذاء جيد - أغسل ملابس - أجعلها بعد التعديل لائقة - نوم جيد وهادىء - العودة الى القرية أو ربما أحد الاصدقاء يحضر زجاجتين من البيرة على الغذاء لابأس عليه**

تبغ بكاملها أجاب عن كل هذه الأمنيات رنين الجرس ، وباب الشقة المقفل كل هذا وهو لا يريد أن يهبط · قال لا يهم أجرة الطريق فقط الى القرية ·

* * *

نظر اليه عم ابراهيم صانع العطور ولم يتعرف عليه

ـ السلام عليكم ياعم ابراهيم

ـ سلام ورحمة الله ·· مين ·· أحمد ـ أهلا وسهلا

ـ كنت أسأل عن الدكتور

ـ فى شهر العسل فى أوربا ·· عقبالك (تنهد الرجل)

ـ منذ مدة طويلة ؟

ـ حوالى شهرين (حوالى شهر)

ـ سوف أترك رسالة له معك ـ وأريد جنيهان ـ وسوف أكتب له أن يعطيهم لك أو ربما أعود بعد أسبوع (قاطعه الرجل)

ـ ليس ـ لدى مانع من توصيل الرسالة (ثم نظر الى الأرض) لكن ـ لاتؤاخذنى الدكتور لم يعد يعرف احدا ·

ـ أنا أحتاج للنقود للسفر الى البلدة ـ أوقع لك ايصالا

ـ لاتؤاخذنى (نظر الى الأرض ، فتح درجه ، خذ جنيه)

ـ لا ينفع

كانت السكين تغوص رويدا رويدا داخله ـ حلقه يجف ـ الدنيا تغيم من حوله انحنى العم ابراهيم حتى لا تصطدم رأسه بالفترينة وغاب خلف الحاجز الخشبى ·

سار دون أن ينتظر خروج العم ابراهيم ـ ضاق الشـــارع كثيرا ـ زاد ثقل الحقيبة كاد يغمى عليه ـ هو فى حاجة الى هواء نقى ٠

ـ أستاذ أحمد ٠٠ أستاذ أحمد ٠٠

استدار ٠٠ كان العم ابراهيم يجرى خلفه ـ توقف ذوى عينيه نظر الى الرجل احتضـــنه العم ابراهيم ومد يده فى جيب بنطلونه ووضع لفافة من الورق فى جيب قميص أحمد وبكى وهو مازال فى حضنه ٠

ـ لا تغضب منى ـ الدنيا مازالت بخير ٠٠

ود لو يبكى معه ـ لكنه جف دمعه فى الليالى البيضاء ـ كانت الشعيرات البيضـــاء قد احتلت رأس الرجل ، ترهل ، ســلم عليه واستدار ٠

أين أيامك ياعم ابراهيم ٠٠ !!

كان الليل يفتح بابه عند الانتصاف فتتراص حلقة غير مكتملة أمام الدكان فى الحلقة ســـيقان الأزهار المقطوفة قاماتنا ، الدكتور اعلانا صوتا ، أنا أكثرهم استماعا باقات ورد فى صدر الليل تخرج ضحكاتنا ، تزيح من الليل جزءاً سميكا تنتظم الحلقة فى نهايتها حول الطعـــام وزجـاجات البيرة ، نجمع النقود من الجميع الا العم ابراهيم ٠

أز بجواره صوت سيارة ، انطلق السائق يلعن أبناء وأباء المواشى الذين يفطرون فولا ويسيرون كالمغمى عليهم ، أدار وجهه للسيارة كانت تمرق بالرقم الجمركى فى ساحة المسجد الكبير ، وقف على الرصيف المقابل نظر طويلا الى مآذن المسجد والنقوش التى عليه ، قرأ (ادخلوها بســـلام آمنين) ، ولكنه قرأها (ادخلوها

بالسلام آمنين) اغرورقت عيناه بالدموع ولكن فجأة انتابته نوبة من الضحك المر (دخلناها خائفين بالحديد والسياط تعلوها مآذن كثيرة وقباب كبيرة وفى أسفلها كان القتل) نظرا بعيدا من بين بنايتين كانت مآذنها واقفة كأسياخ الحديد المحمى وقبابها لامعة كبيرة كبطوة الحوامل ، وقد ظهر باقى جبل المقطم كظهر جمل برك نهـــائيا فى خشـــــوع ٠

لف حول السياج الحديدى ، الجنود الفلاحون فى ملابســـهم السوداء بعصافيرهم على جانبى الوجه ، يقفون ثلاثة ، ثلاثة ، فى نهاية الميدان عربة كبيرة خضراء اللون زيتية لتحميل الجنود واقفة ٠٠ والسائق يدخن سيجارته ٠

ان هذا اللون الزيتى رآه منذ عشر سنين على الضفة الأخرى كان يرقب ظهوره بيديه بندقية تلســكوبية ، فوق الأشــــجار اتخذ مسكنا مختفيا يقتنصه ان ظهر لم ينتظر المكافأة ، لكنه كان يحس بالراحة وبأن الخطوات قد اقتربت أكثر كلما صرع واحدا منهم ٠ ثم رآئهم منذ خمسة أعوام يسيرون فى الدقى وفى شوارع القاهرة ، أفزع تماما حاول أن يقول شىء لكن نام فوقه ليل ثقيل وسياط من لهب وبحار من دم ، تفجر جلده ، وحرم السير فى شوارع مدينته التى يحبها ٠٠

ركب الترام الأزرق الى باب الحديد ، جلس وحيدا ، أخرج لفة النقود التى دسها له العم ابراهيم فتحها ، جنيهان ، خمســـة وعشرون قرشا ، ثلاثة ورقات فئة العشرة قروش ، قطعة فضـــية بخمسة قروش ، رتب النقود وضعها فى جيبه تاركا الخمسة قروش الفضية فى يده (**يبدو أن هذا كله حصيلة يومك ياعم ابراهيم)**

أعطى قاطع التذاكر النقود ، أعطاه ورقة من فـئة القرشين ولم يعطه الباقى ٠

(قال سهوا) :

صعدت من احدى المحطات نسوة يلبسن السواد تلك الملابس البلدية التى تضج برائحة العيال ، جلسن على المقعد الطولى المواجه، فهم من حديثهن ومن الأجولة والأكياس التى معهن أنهن فى طريقهن الى الجمعية ..

صعدت فتاة فى السابعة عشرة صارخة المكياج تظهر بوضوح ملابسها الداخلية الضيقة جدا من تحت ثوبها الشفاف وكان يشير لها بغل سمين فى سيارته المرسيدس مودعا وردت عليه الاشارة .

كان فى عمر أبيها .

وصل الترام الى محطة باب الحديد ، اتجه الى محطة القطار كانت أفواج من البشر يسيرون فى أشكال دائرية تتقاطع معها عاليا بأشكال دائرية أيضا حركة السيارات ثم يهبط عليك فى أسفل السلم طوفان من البشر تلقى بهم كبارى المشاه .

نظر الى كبارى المشاه وجد أنها تحيط تماما بتمثال رمسيس ظن أنها للاحاطة برمسيس خوفا من فراره ، نظر الى رمسيس ليسأله وجده محاطا بألواح من الخشب ولم يبق منه ظاهرا الا أعلى تاجه ناداه .

(أيها المحارب المنتصر حتى أقصى الشرق لماذا دخلت التابوت)

دفعه طوفان البطون الجائعة الى كل اتجاه ، سأل عن القطار المتجه الى الزقازيق) علم أنه يتحرك بعد خمسة دقائق .

كانت تقف فى صفوف متراصة متوازية ، تحت القبة الهائلة الملونة بالزجاج الملون والنقش الاسلامى البديع ، وصوت مكبرات الصوت الأنثوية تعلن عن القطار المتجه الى الاسكندرية .

اشار له رجل فى زى المصلحة عن قطار يدور محركه محدثا أزيزا عاليا مرق من خلال الباب الحديدى الى الرصيف أحس أن العالم مشغول بغيره ، كل يغوص فى همه ، الناس يتحركون آليا ـ سار على الرصيف يستعرض القطار فهى عادته القديمة ويبحث له عن مكان خال ٠٠

ـ أحمد ٠٠٠٠ أحمد ٠٠٠٠

توجه ناحية النداء ، كان أحد أصدقائه جالسا يطل من نافذة القطار ،

ـ حمدا لله على سلامتكم ٠٠ متى عدت ؟

ـ ٠٠٠٠ من أين ؟!

ـ من الخارج ٠٠ ألم تكن مسافرا ؟

ـ نعم ٠٠٠٠٠

(كنت مسافرا الى الداخل)

تركه ومضى ، دخل الى الدرجة الثالثة المزدحمة يبحث عن مكان وجد مابين بابين وسط القفف والمقاطف مكانا لقدمه ، نظر الى أرفف القطار وجد اللون الزيتى يحتل الجنود والأرفف ٠٠

أوسع له مكانا على الأرض جلس وأسند ظهره الى ظهر مقعد بعد أن أقفل الباب الذى ليس على الرصيف وأزاح القفف خلفه ، اشترى من بائع السجائر ستة سجائر وعلبة ثقاب ، ازدحم المكان ببائعى العرق سوس والسفن أب ، والبيبسى ويس ، والأمشاط ، أشعل واحدة ووضع العلبة فى الحقيبة بين ساقيه ألصق بطرف لسانه أماكن الخلل بين جسم السيجارة ، والفلتر ، سحب نفسا عميقا ٠ تحرك القطـــار فى الثانية وعشـــر دقائق ، ازدحمت طرقة القطار

بالواقفين وأحاديثهم رأى ساقين عاريتين ممتلأتين أمامه ، نظر اليهما مليا ، وتحركت الشهوة فيه صعد ببصر بطيئا الى أعلى ، زادت شهوته ، جاء طرف الثوب بخط مائل ليقطع نصف الفخذ الامامى وتداخل الفخذان يواريان بعضهما وتوارث الرجل اليسرى بنصفها خلف اليمنى ، تمنى لو انحنى ورأى قليلا ، كانت اهتزازات القطار ترجرج الفخذين بشكل سافر ، المقعدة ممتلئة والوسط يلفه معانقا حزام ، أعلاه كتب وحقيبة ·· حاول أن يصعد ببصره الى أعلى ، نار مابين السبابة والوسطى ، ألقى بعقب السيجارة التى لسعته ، ثم داسه تحت نعله ، أسند رأسه الى الخلف ، كانت هالة الشعر الفاحم حول البدر بمساحيقه وغمازتين على الجبين وبصمة حسن على وسط الذقن كتوقيع فنان ماهر وشهادة ميلاد الجمال ·

كانت تنظر اليه ، وقع فى بؤبؤ عينيها ، ابتسمت ، حاول أن يتحاشى نظراتها ركز نفسه فى نفسه حاول أن ينام على اهتزازات القطار لكنه كان غير متأكدأنهم لن يأخذوه ··

(ربما لو نام قليلا لصحى على سياط تلهب ظهره وأسئلة متلاحقة لا يعرف شيئا عنها ، كان يصرخ بأنه لا يعرف ، أخيرا قالها فى استسلام مهين كجندى فرغت ذخيرته وأحاط به العدو من كل جانب ، ماذا تريدون حاول أن ينصب لهم فخا ، أكتبوا ما تريدون وسوف أوقع عليه ، لكنهم أصروا على أن يقول ، ولم يقل ·

أجلسوه على كرسى معدنى وبينما هم يحققون معه ، أنذروه بأنهم سيجلسونه على الكرسى الكهربائى اذ لم يقل ، كان يدرك أن الانسانية مازالت بخير ، وأن هذا لن يحدث ، والا لماذا لا يقتلونه بدلا من الابقاء عليه حيا ، اشتعلت النار وفتحت سعيرها من كل جانب فى آن واحد على كل جسده ، لم يحس الا وهو طائر فوق رؤوس مستجوبيه ، اصطدم بالحائط ·

فى اليوم الثالث أفاق كان كل جسمه يدمى ، أحس أنه مريض بالحساسية ، كان يود أن يهرش بشكل لا أدمى فى كل جسمه حتى الادماء خاصة الرقبة ومابين فخذيه ماهذى الملايين من القارصات التى تسعى تحت جلده ، أخذ يحك ، كل أجزاء جلده حتى الادماء ٠

فى اليوم الرابع أحضروه قدموا له كوب لبن وبسكوت وكوب ماء وعلبة تبغ وكوب شاى وعلبة ثقاب على صينية واحدة ، كان قد عزم على عدم تناول الطعام حتى الموت لينهى عذابه ، من يوصل صوته الى أصدقائه ، ألف سد وسد ، ألف حائط من الرصـــــاص وبينهما آلات تعذيب وعيون وآذان ، وخوف السقوط ٠

قالوا ٠٠ يعرفون أنه لا علاقة له بأى شىء ، لكن أســــماء أصدقائك وما طبيعة العلاقة بينكما ٠ كانت عيونه وكل خلايا جسمه تشرب الشاى والماء واللبن والسجائر والبسكوت لم يستطع مقاومة الحياة كاد أن يمد يده ٠٠

اعادوا عليه السؤال قال لا أعرف ، أصدقائى كثيرون أنا لا أقفل بابى فى وجه من يطرقه ، توالت الصفعات عليه ، سحبوا من أمامه صينية الطعام ، علقوه من تحت ابطيه على الباب ، كانت الدنيا تغيم والألم يسرى فى عضده والنار تلتهب تحتأبطيه وجسمه يستطيل الى أسفل عظامه توجعه ، حاول أن يتكلم ، كانت غلالة من العدم تغلف العالم ، أحس أن له جناحين كبيرين ، وأنه يطير بعيدا ٠ يحتضـــــن الحقول والقرى ، قريته تستقبله آلاف الأطفال ينتظرون حكاياته ، آلاف الأسئلة على كل فم تنتظر اجابة ٠٠ ابتسم »٠٠

فتح عينيه ، حركة حوله ــ كانت حدة الزحام قد خفت حوله ٠
حاول البحث عن الفتاة الجميلة لم يجدها ٠٠ اعتقد أنها كانت حلما ٠

ــ أستاذ ٠٠ مكان خالى ٠٠

اتجه الى حيث أشار الرجل ـ كان المكان خاليا وأمامه رجل بشارب قصير وشاب يحمل كتبا تحرك القطار من المحطة التى وقف فيها ٠٠

ـ تذاكر ٠٠٠ تذاكر ٠٠٠

الزقازيق

ـ مد يده بخمسة وعشرون قرشا ٠

ـ باقى خمسة قروش

أعطاه عشرة قروش فأعطاه قاطع التذاكر ورقة غرامة وتذكرة بثلاثين قرشا ولم يعطه الباقى ٠٠

(هى عادة اذن)

توقف القطار فى محطة الزقازيق ٠٠

مدخنة المصنع ـ فندق عرابى ـ أعالى بيوت الحسينية ـ مبنى الاحزاب ـ كازينو الزهراء ـ مئذنة مسجد رضوان)

دخل فى الممر وخرج الى الميدان ٠ كان أحمد عرابى مازال راكبا حصانه شاهرا سيفه يتجمع حوله جيش من ماسحى الأحذية ومنتظرى ركوب سيارات المدينة الداخلية والمتسولين ٠ أشـــعل سيجارة وأحس بحاجة الى الطعام ٠٠ وسار فى طريقه الى الكوبرى الجديد ، ضاربا بحذائه وجه الأســـفلت مجتازا حلقة الســـمك **(لم يبق أحد فى الحلقة الا رائحة السمك ، وسمكة مسحوقة فى عرض الطريق)** ٠٠

بدأت الأضواء فى الظهور لتبدد ظلمة المساء القادمة من أعلى البيوت وعمق الشوارع ٠

ركب تاكسيا جماعيا الى قريتهم حيث يمر عليها التاكسى ٠٠ أعطى السائق جنيها فأعطاه خمسة وستون قرشا تعجب كيف ارتفعت أجرة الركوب الى هذا الحد ، نبه السائق أنه سوف ينزل عند نقطة المرور كانت الأشجار تولى هاربة فى جحيم المساء ولاحظ انتشار مساحات جنونية متراصة فى عمق المساء معلقة فوق الحقول ٠ خمن ربما شبابيك مساكن عمال السكة الحديد (عمال الدريسة) لكنه وجدها متكررة بشكل ملحوظ ، وقفت السيارة أمام نقطة المرور نزل من السيارة ومعه حقيبة علقها على كتفه وسار ٠ هذا صهريج المياه – لكن ماهذه البنايات التى ارتفعت فى عنان السماء عن اليمين وعن اليسار ، كانت لافتات كبيرة تعترض الاتساع ،

كانت البنايات تعلن فى وقاحة عن اغتيال قطع كثيرة من الأرض الزراعية ، وعلى ضوء لمبات الكهرباء القليلة على الطريق لاحظ أن الحقول مجذوذة الشعر والعجز محلولة الازار والبنايات ترشق أعمدتها الخرسانية فى ضمير الحقول ، حاول أن يفهم ولكنه لاحظ أن أحدا من القرية لم يستقبله لا رجالها ، ولا شبابها ، ولا كلابها ٠

(أعود الى بيت الأسرة ، أغسل ملابسى ، أستحم ، أحلق شعرى وذقنى ، آكل أنام ، أدخن ، أنا لم آخذ شيئا من ميراث العائلة تركته لأخى كنت أقرأ فى المستقبل وقد جاء اليوم ، أخى الآن هناك مع زوجته وسوف يستقبلنى جيدا بعد كل هذه الشهور كان بودى أن أعود اليه نظيفا لكن شقتى بالقاهرة أخذها زملائى أو قل رفاقى وتزوج أحدهم فيها ، أى لا مكان لى الا هنا) ٠٠

كانت بقايا الحقول والقنوات مستسلمة راضخة لشىء مجهول مضطجعه بخدر كالفأر لحظة افتراس القط له ٠

كانت لافتات البنك تعلن عن وجوده خلف الكوبرى مباشرة ،

اجتاز الكوبرى ، كانت شرفات مضاءة على حبال الغسيل ملابس ملونة وتسأل من يسكن هناك ؟

سمع فى مبنى من هذه المبانى الغريبة صوت موسيقى ينشـــر أجنحته يحتل المكان نظر ناحيته شاهد على الزجاج اشباحا ترقص وأخرى بيديها الكؤوس كأنها مطبوعة على زجاج الشـــباك المقفل الزجاج ، واجهته القبور فى وسط القرية ، كانت منذ مدة وجيزة فى أول القرية ، لكن تجاوزتها البنايات غير الشرعية ، لاحظ أن أشجار (دقن الباشا) الثلاثة قد قطعت ولم يبق الا الجميزة العتيقة ومقام سيدى أبو خليل العسكرى وعلى الطرف الغربى مقام سيدى ابراهيم البرهتى ، وفى الناحية الشرقية ، حجرة مقام الشيخ طلبه ، تعرف على منزلهم ـ منزل أخيه ـ بصعوبة ـ دق الباب أشجار الحديقة تغط فى نوم آسن ، لا ضوء فى البيت ، مازال الليل فى أوله وتعلم أن يخمن ساعات الليل حوالى الثامنة أو السابعة والنصف ٠

ـ الاستاذ سافر ، زوجته تقيم عند أهلها

ـ سافر الى أين ياعم السيد ؟

ـ بره بلاد بره ٠٠ من أنت ؟

ـ أحمد كيف حالك ـ حمدا لله على سلامتك ، متى خرجت ؟؟

ـ أحمد !!! ؟؟ ثم تركه بعد برهة وسار فى طريقه دون أن يكمل حديثه ٠٠

قال ليس أمامى الا شقيقتى فهى متزوجة فى البلدة ، أنام حتى الصباح ربما أجد المفتاح عندها ٠

دار حول المنزل بالليل ، جوعه وشوقه للانسان ٠٠ أى انسان أن يحادثه ، أن يستريح جعله يدق الباب ٠

جاءه الصوت حادا بعيدا قادما من أعماق بئر ·

ـ من ؟

ـ أنا أحمد يازينب ··

ـ من ؟

ـ أنا أحمد

ـ اذهب الله يسهلهالك لا تخرب بيتى ، أقسم زوجى بالطلاق اذا دخلت البيت ،ما ذنبه أن يذهب الى المركز ، ويبيت ثلاثة أيام يضرب فيها حتى يعود وقد ضاقت عليه ملابسه ورما ··

وجد نفسه يبتعد كثيرا ويلف فى شوارع القرية ثم الى شارع داير الناحية

(تعذب الناس بسببى)

اعتصره الألم ·

(وليس أمامى الا هو صديق العمر والطفولة والشباب)

دق الباب جاءه الصوت خشنا دافئا

ـ من ؟

ـ أنا أحمد ياعصمت

ـ أحمد مين ؟

كان سؤال تلكأ ، همس يدور فى الداخل يصل القليل منه ·

ـ أولادك ـ حرام عليك ـ والله لن أدخل بيتك مرة أخرى كان صوت زوجته يحذره ويهدده ··

أحس أنه طاعون أو جدرى ، مرفوض ممن ذهب بعيدا من أجلهم ، ومن أجل ما يعتقد أنه الصحيح .

أطفئت الأنوار فى المنزل . بكى طفل ، ســـار بعيدا بحث عن البيوت القديمة المتماسكة وجدها قد حلت نفسها وأضغمت فى بنايات جديدة ..

(لا يريد أن يعرفنى أحد .. ولكنى أحبهم)

سار فى طريقه خارج القرية ، على البعد أضواء نقطة المرور ومصابيح متفرقة فى الطريق لاحظ أنه لم يستمع الى نقيق الضفدع وعلى حين غرة سمع نقا ضعيفا ، اجتاز القناة فى قفزة واحدة ، بحث فى وسط بقايا الحقول عن قناة وجد العينين الجاحظتين تنظران اليه فرح كثيرا علق حقيبته فى كتفه الأيسر وضع يده بعد أن كورها فى داخل جيبه والأخرى فى الجيب الآخر ، أفسح مكانا لقدميه بين نباتات الحقول ، ثبت نفسه جيدا ، أخذ نفسا عميقا ، ثم انطلق ينق مع الضفدع الصغير تصبب العرق منه ، مسحه فى كمه ، سكت ليأخذ نفسا عميقا ، سمع نقيقا كثيرا حوله وكثرت العيون الجاحظة فى القناة ، استمر فى النقيق عاليا رافعا رأسه لأعلى ، رافعا رأســـه لأعلى راقبا نجما وحيدا يلمع فى البعيد .

صلاح والى

١٩٨٣

رقم الايداع ٤٣٤١ / ١٩٨٨

الترقيم الدولى ٤ ــ ١٨١٨ ــ ٠١ ــ ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب